النافذة الغربية



محمد عبد الحليم عبد الله

89

مكتبة مصر

عودة الغريب

تأليف

محمد عبد الحليم عبد الله

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

مجموعة « عودة الغريب »

صفحة

أفكار الليل

لماذا بنيت هذه الحارات وتلك الأزقة على هذه الصورة المعوجة ؟ هل اليد التى رسمتها لم تكن قادرة على تعديل الخطوط ؟

وتوقف فكره عند هذا الحد ..

وتذكر ابنه زين العابدين التلميذ بالمرحلة الأولى وهو يكتب، فتارة يشرئب بالسطر إلى أعلى ، وتارة ينحنى به إلى أسفل ، وطورا يعرجه كمشية الثعبان . ثم وقف الرجل الذى يفكر فى مكان ما عند الناصية ، وحملق فى الأفندى النظيف الذى مرّ به وخمن أنه مهندس ، ثم تصور أن ابنه سيكون مهندسا . وسيرسم الشوارع بهذا الشكل المعوج ، وبنفس الطريقة التى يكتب بها فى الكراسة .. ثم تنحنح وتحرك من مكانه وهتف فى نفسه : يا ريت ..

ومن الساحة التى تلتقى عندها ثلاث حارات ، وقف ينظر فى اتجاهات ثلاثة .. إلى حارة عبد ربه وعطفة الكركون ، ودرب محمود .. وكلها طرق مسدودة ، يقف فى صدر كل منها بيت عال ، يؤكد للمارة أن المرور ممنوع ، وفى الشرفة العليا من إحداها ، يتدلى غسيل أبيض تتميز فيه قطعة كبيرة هى ملاءة لسرير . نسيم الخريف فى الليل الرطب القريب من مدخل الشتاء ينفخها ويفرغها وينشرها ويطويها .. والنوافذ موصدة .. وكلب ضال ذنبه بين رجليه يأخذ طريقه إلى الخرابة القائمة على مرمى البصر ، والمصابيح معدومة ، والوقت بعد نصف الليل ، وليس فى سهرات الراديو هذا المساء

شيء مغر ، لذلك فليس هناك ضجيج كأن سكان هذه المنطقة جميعا متعبون ناموا مبكرين وكأن كل شيء يقول للثانى :

« هس » .

« وظيفة متعبة .. لكن فيها شيئا من التسلية .. نحن نرى أحوال الناس » .

ومصمص بشفتيه فى هدوء ، ولم يكن لحذائه العسكرى وقع ظاهر على الأرض ، فهو ينقل قدميه برفق والحارة غير مبلطة ، ونقّل البندقية من يده إلى كتفه ، ثم انزوى فى صدغ باب .. كان يقول فى نفسه :

« إن ميعاده قد قرب .. ذلك الشاب الأنيق الذى لا يعود إلا بعد منتصف الليل .. هو آخر من يدخل البيوت فى تلك المنطقة . إن أبهة ثيابه لا تتناسب مع هذا الحى ، لعله سائق عند أحد الأغنياء فهو يخلع عليه من ملابسه الأنيقة .. لقد تأخر » .

ثم تحرك خارجا نحو الشارع الرئيسى الذى لا يبعد كثيرا عن المكان ، وسمع نفس الأنين الخافت المتهالك ينبعث من وراء شيش المنظرة فتبسم ، لقد ظنها منذ ليال شيئا غير آلام المرض ، لكن آهة طويلة أعقبتها نوبة بكاء حددت له الموقف ..

واستمر فى طريقه .. وعلى مقربة من الشارع الرئيسى وقف يدخن سيجارة .

كانت الحوانيت تبدو أمام عينيه صفا مقفلا ، ترقد عند عتبتها الأقفال ثقيلة غليظة .. وبعض أوراق مهملة يطير بها الهواء فى كل اتجاه .. ثم ألقى عقب السيجارة على الأرض ، ودخل إلى المنطقة المظلمة مرة أخرى .

وسأل نفسه عندما تذكر المريضة التى تئن :

« ترى ماذا بها ؟ مغص كلوى كالذى يهاجم امرأته أم زين العابدين ؟

حزق أو سلق من حلة طبيخ أو صفيحة غسيل أو وابور غاز ؟ ليكن ما يكون .. لكن لماذا لا تثور آلام الناس إلا فى الليل ؟

وابتسم — وفرح بنفسه — وهمس قائلا :

« يا خسارة يا واد يا فرج — يعنى نفسه هو — لو أننى تعلمت لكنت فيلسوفا ... أو ربما كنت عالما مثل الذى عرف البنسلين .. نعم البنسلين لا الأسبرين .

وعاد إليه السؤال :

« لماذا لا تثور آلام الناس إلا فى الليل ، وعندما يقترب الفجر تهرب كأنها اللصوص »

وتذكر اللص الذى قبض عليه وهو يتسلق أنابيب المياه فى الأسبوع الماضى .. وكيف أنه حاوره وداوره ، ثم لجأ أخيرا إلى استعطافه ، حلّفه ليلتذ بابنه .. وكاد قلبه يخفق له ، لكنه صرخ فى وجهه بصوت عال كأنما ليطغى على همس قلبه :

« اخرس يا حرامى مالك ومال ابنى .. هس »

ووصل إلى الساحة الواسعة فى المنطقة المظلمة التى كان فيها أولا .. حيث تلتقى حارة عبد ربه وعطفة الكركون ودرب محمود .. ومر عليه فورا الفقيه الأعمى ، يتحسس طريقه ويستغفر الله .. كان راجعا من سهرة امتدت طويلا .. وكتم عسكرى البوليس أنفاسه حتى لا يحس به الأعمى .. وسأل العسكرى نفسه سؤالا وجيها :

— « لماذا يعرف العميان طريقهم فى الظلام ؟ هيه .. لو أغمضت عينى ومشيت لضللت طريقى » .

وتوصل للجواب :

« الله هو الذى يهديهم » ..

وفرح بنفسه مرة أخرى ، وهمس قائلا :

« يا خسارة يا واد يا فرج ، لو تعلمت لكنت رجلا عظيما .. ربما محافظا للقاهرة أو لإحدى المحافظات الأخرى الصغيرة مثلا .. لكن البركة فى زين العابدين » .

ورأى شبحا يتحرك على بعد ، والنور يلمع فى الطبقة السفلى من المنزل الأخير فى عطفة الكركون .. هذا ما يحدث فى معظم الليالى .. هذا الأفندى يدخل هذا السكن .. كل شيء يمشى بنظام وبشكل طبيعى لا يحمل دلائل الريبة ، على أن عوده الممشوق يدل على أنه ابن عز .. على أن هناك ليالى لا يراه فيها .. ربما لأنه يكون بعيدا عن المكان ساعة عودته أو لعله يبيت خارج مسكنه بعض الأحيان ..

وسأل نفسه :

« ماذا تفعل النساء عندما يبيت أزواجهن فى الخارج » ؟

وتعب لنشاط أفكاره . إن ذهنه يرميه بسؤال وراء سؤال ، ثم لا يلبث أن يتحفه بالجواب .. على أنه رأى أن هذا السؤال أوجه ما وجه إليه . وتحرك يمشى فى سكون ، مشية الصائد إذا تتبع الطريدة . ووردت عليه فى هذه اللحظة امرأة ما لبث أن عرفها ؛ لأنه دقق معها ذات ليلة فأجابت بأن حرفتها تحتم عليها أن تخرج فى غير مواعيد وترجع فى غير مواعيد ، على حسب الحوادث .. وكانت راجعة من بيت امرأة جاءها المخاض ، فسهرت جنبها حتى وضعت .. ومن الغريب أن هذه الداية تركت بنتها هى تعانى آلام الولادة ..

وهكذا يكون باب النجار ..

ومرت به وهمست بالتحية وهو يتمشى فى سكون .. ووازن بين المهنتين فألفاهما متشابهتين . إنه هو شخصيا يسهر على أمن الناس ، وربما كان أولاده منزعجين من شىء ، ولوى شفته وعاد إلى السؤال المعلق الذى كان واقفا ينتظر الجواب .

وأجاب نفسه :

« سؤال سخيف ، ماذا عسى أن يصنع النساء إذا بات أزواجهن خارج البيت ؟ لا شىء » ..

وسمع ضحكة تأتى من مكان ما مبهمة غامضة من التى يلونها السكون بألوان مثيرة ، ضحكة رجل ظفر بشىء ما بعد طول مقاومة .. فتذكر وعاد إليه السؤال فحاول أن يجيب :

« بعض النساء ينمن متعبات من عمل النهار فلا يفكرن أبدا .

وبعضهن يحلمن بعودة الزوج حتى يبدد الوحشة .

وبعضهن لا يحلمن بعودته حتى لا يبدد الأنس » .

وفى هذه المرة وبعد هذه الإجابة ، لم يفرح بنفسه ولم يطرها ويصفها بالذكاء ككل مرة يجيب فيها عن سؤال ، فى هذه المرة اتهم نفسه بالغباء :

« هناك أسئلة لا داعى لها .. وبالتالى تكون الأجوبة لا داعى لها كذلك » .

وبصق على الأرض ، ثم عاد إلى الساحة حيث تلتقى هناك حارة عبد ربه وعطفة الكركون ودرب محمود ، وجعل يحملق فى الغسيل المنشور فى الشرفة الأخيرة من البيت القائم فى الصدر ذى الطبقات العالية والذى يسد الحارة فى إصرار . وحلقت فى السماء سحابة فى لون حجر الشبة ، وخيل إليه أنها ستبخ الغسيل . ثم أحس أن ساقيه تؤلمانه . لماذا ؟ لأن صحته ليست على ما يرام فى

هذه الأيام . مفاصله غير مربوطة جيدا . لكأن أعصابها ممطوطة مثل « الأستك » الفاسد الذى تخلعه امراته من سراويل الأولاد .

وخطر له ابنه زين العابدين . هل سيقف هذه الوقفة ؟ وجعل يحاور نفسه :

— لا قدر الله يا بنى .

— هل يكون مثل اليوزباشى شاهين أفندى ؟

— يمكن .

— وهل شاهين أفندى سعيد بحياته ؟

— سعيد أو شقى .. المهم ألا يقف زين العابدين هذه الوقفة .

— أليس من الجائز أن يكون أحد الذين تقبض عليهم يدى فى الظلام ؟ يعنى لصا ؟

— جائز .

— إذن لا حول ولا قوة إلا بالله . ينام حتى الصباح حتى يتم التحقيق ويحبس احتياطيا وتحدد له قضية ويكون من أرباب السوابق ، ويسد فى وجهه باب كل عمل شريف فيشرب المر لأنه لا يجد إلا المر .

— أعوذ بالله من وسوسة الشيطان .

ثم أفاق على صراخ ، أعقبه ضجيج فيه أصوات مختلطة واستغاثة بالبوليس ، فرجح أن الغسيل البائت فى الشرفة سطا عليه لص عن طريق السطح فأسرع يهرول ، لكنه تبين أن الحادث فى مكان آخر .. فى الدور الأرضى الذى دخل إليه الأفندى الأنيق منذ ساعة .

* * *

كانوا يقولون إنه « حرامى » لكن هيئة اللصوص لم تكن بادية عليه . وقد

رآه « الواد فرج » وهو يدخل منذ مدة وعرفه من قوامه الممشوق وهيئته الرياضية السليمة . لكن تبين أنه نصف زنجي . ومما لا شك فيه أنه سواق عند أحد الأثرياء .. وقد قرر بنفسه هذا ولعله كان يحتمي باسم سيده . وقهقه « الواد فرج » عندما رأى أن فراسته لا تخيب حتى فى الظلام . أليس هذا شيئا يسعد ويخفف من آلام المهنة ، أن يكتشف الإنسان فى نفسه أنه أهل لعمله ؟

ـــ يخرب بيتك .. وماذا أتى بك إلى هنا ؟

ـــ كنت عند هذه السيدة .

وأعلنها بوقاحة جريئة ، وصمم الجيران على أنه لص ، لأنها هى التى قالت ذلك واستغاثت بالناس ، وكان فى عيون بعضهم تحت نور المصابيح شك شديد ، وعلى وجوه السيدات علامات سخرية ، وكان بعضهن بملابس النوم وعلى شعرهن آثار الوسادة . فعرف عسكرى البوليس أن الناس كثيرا ما يعلنون بألسنتهم غير ما يعلنون بملامحهم .

وكانت النهاية أن سلمه إلى القسم ، وأصرت المرأة التى تنام وحدها ـــ لأن زوجها غائب ـــ على أنه كان يفتح عليها الباب . وفقط .

* * *

كانت الساعة قد جاوزت الثانية صباحا عندما فرغ « الواد فرج » من هذه المشاغل ، وانسل فى الظلام من جديد داخلا إلى منطقته ، فعاوده السؤال الذى كان ألح عليه منذ ساعات عما تعمل النساء إذا بات أزواجهن خارج البيوت .

فتذكر ما جرى ، وتذكر أن أم زين العابدين تنام وحدها الآن على مسيرة ربع ساعة أو ثلث من هذا المكان . فلماذا لا يذهب ويرى ما هناك ؟

وأجاب عن السؤال :

ـــ ربما تمر الدورية فى غيابى فلا تجدنى فى مكانى .

ثم حاور نفسه :

ـــ يعنى حبكت ؟ ..

ـــ الطوبة فى المعطوبة .. الحشرة لا تأتى إلا فى الأصبع المجروح .

ـــ عملتها مرة وذهبت فوجدت كل شيء على ما يرام .. وعدت إلى النقطة فوجدت كل شيء على ما يرام كذلك .

ـــ هل تسلم الجرة فى كل مرة ؟

ـــ لا .. لن أذهب .. لن يكون البيض الذى ترقد عليه الدجاجة فاسدا كله .. حقيقة أن فيه بيضا فاسدا ، لكن .. ليس كله ، ليس كله .

وبعد يومين تبدل الموقف فصارت راحته بالليل وعمله بالنهار . وقضى المساء الأول فى بيته يتسامر مع أم زين العابدين .

وعندما نام كل شيء فى الشقة وسكنت الحارة ، كان هنالك صوت رضيع فى البيت المواجه يبكى بكاء ينطق بأن أحدا لا يهتم به ، فنظرت إلى زوجها كأنها تسأله عما شغل أم الصبى عن بكاء الصبى ، وعند ذلك تذكر الرجل ما رآه منذ ليلتين حين أمسك الجيران بالشاب الممشوق واتهمته المرأة بأنه لص . وكانت أم زين العابدين تضطجع فى استرخاء وتنظر وهى تتثاءب .. فسألها الرجل باهتمام وهو يتمدد إلى جنبها :

ـــ اسمعى .. حين تركتنى وحدى وأقمت فى البلد أيام ولادة بتناصفية .. هل تذكرين كم يوما غبتها عنى ؟

ـــ نسيت ؟ .. مائة إلا واحدا .. عددناها معا ليلة التقينا .. نسيت ؟

وضحكت كأنها تقربه منها ، لكنه سألها بنفس الاهتمام :

ـــ طيب .. ألم يخطر على بالك فى سكون إحدى الليالى أننى نائم فى

أحضان امرأة غريبة ؟

فأجابت بصوت ملؤه الشفقة ولا يخلو من الحب :

ـــ أبدا .. كنت دائما أراك فى « الدورية » فى البرد أو راقدا وحدك والغطاء واقع من عليك .. آه .. أنا أثق فيك .

فمشى الحنان فى كيانه ، وتذكر أن البيض الذى ترقد عليه الدجاجة لا يمكن أن يكون فاسدا كله ، وأن اليوزباشي شاهين أفندى قال لأحد زملائه على مسمع منه ذات مرة :

« إن المرأة التى تثق فى زوجها قلما تخونه ».

فأحس « فرج » كأن الحكمة هبطت عليه من السماء ... فى الليل الساكن .

وبصبص زين العابدين على مقربة منه بعينيه ثم نام . فرأى فيهما نفس عينيه .

وفى الوقت الذى انقطع فيه صوت الرضيع فى البيت المواجه كان صوته هو يتدفق إلى أذن امرأته حارا متهدجا مرحا :

ـــ زينب ... هل تعلمين ؟

فشهقت :

ـــ بماذا ؟

ـــ بأننى أحبك .. آه الدنيا برد ، تعالى إلى جوارى .

نافذة فى الدور الثالث !

كانت ليلتنا فى أولها هنية ، وشاركت فيها أنا وزوجتى مجتمع القاهرة فى مشاهدة فيلم موسيقى ملون ، أثار فى نفوس الناس من كل ما حبب إليها الحب .. فأحس الشباب أنهم فى الموسم ، وأحس الرجال أنهم قرب النهاية ، وأحس الشيوخ أنهم فى وقت الحصاد فأغمضوا أعينهم يستعيدون كل ما مضى .

أما أنا فإنى أحسست تحت الظلام بحركة كفها ، تتلمس طريقها إلى كفى فأسلمتها إليها . وجرت فى دمى جنبا إلى جنب نشوة الموسيقى ، نشوة عبثها بأصابعها وخيل إلى أنها عذراء مستحيية تفعل هذا للمرة الأولى .

ولما خرجنا إلى الطريق العام بعد العرض ، وجدت الجو مائلا إلى البرودة والسماء قد أمطرت ، فلمعت الأرض وغبشت زجاج المصابيح ، ولقيتنى فجأة أمد يدى إلى زوجتى بحرص لأضم على صدرها ياقة معطفها .

ولم أنتظر حتى أجد مكانين فى المركبات العامة فركبنا عربة .

وفتحت الباب بالمفتاح الصغير ، ودخلنا ، وكانت الخادم غارقة فى النوم ، وسمعت شخيرها وأنا مار عليها حيث ترقد قريبا من المطبخ ، فألقيت عليها غطاء إضافيا لأنها كانت مزكومة ثم عدت إلى حجرتى لأخلع ملابسى .

وخلعت زوجتى ملابسها وهى توحوح ، ولم تشأ أن توقظ الخادمة من نومها فجهزت لنا عشاءنا بيديها ، وكان خفيفا لذيذا تفننت فيه .

وعادت السماء تمطر ونحن على المائدة ، ووقفت قطرات الماء على الزجاج

المفتوح ، وكنت جائعا ألتهم الطعام بشهية يقظة وذهن نصف نائم ، ومزاج فارقته نشوة الموسيقى وحلاوة السهرة . أما هى ، فقد ظلت كما هى .. يومض كل شيء فيها كما يومض كوكب الزهرة فى سماء الريف ، فى ليلة ظلماء .

تأكل ، وتضحك ، وتنظر كأنها تسأل عن أفكارى . ثم سكتت قليلا ، ثم تتكلم فتستعيد ما أعجبها فى الفيلم من مواقف ، ثم تترك قدمها لتلمس قدمى من تحت المائدة حتى انتهى العشاء .

كل شيء فى كان قد خمد ونحن فى الطريق ، حين بدأت العربة التى ركبناها فى اختيار ميدان أهم ميزة فيه أن البيوت المطلة عليه تقفل فى وقت باكر كل ليلة ، لأنها آهلة بعيادات الأطباء .

وبدأ قلبى يختلج حين طالعنى فضاء الميدان ..

قد يكون هذا الحادث تافها ، ولكننا لا نقيس الحوادث إلا بآثارها فى أنفسنا نحن ساعة وقوعها ، لأن نظرتنا إليها بعد ذلك قد تتغير .

وأخذت أراقب وجه زوجتى فى ظلام المراية ونحن نعبر الميدان ، وساعدنى شعاع من الخارج سقط عليها فى اللحظة الحاسمة وهى تميل لتنظر إلى نافذة فى الدور الثالث فى عيادة طبيب . وكان الضوء ينبعث منها على الرغم من أن كل النوافذ حولها مغلقة كأنها أعين غلبها النعاس .

وحولت هذه الحركة مجال أفكارى قهرا ، لكن ببساطة كأنها إشارة عسكرى المرور . فأخذت نشوة الموسيقى تتراجع لتحل محلها مشاكل نشبت فى بيتنا فترة من الوقت ، ثم اختفت حتى خيل إلينا أننا نسيناها .

تذكرت يوم فطنت إلى أنها تتردد على عيادة هذا الطبيب لضرورة ولغير ضرورة ، وكنت محرجا فى أن أصارحها بعدم ارتياحى إليه ، وهممت ألف

مرة أن أقول لها إن أطباء كثيرين من نوعه يملأون المدينة ، ولكننى خفت أن أتهم بالشك أو سوء التقدير فالطبيب أمين ، وهو يصطنع لنفسه الأمانه إن لم تخلقها فيه كثرة مزاولته العمل ولكننى كنت أعود فأسأل نفسى قائلا :

« ألم يحدث أن أعجب أحدهم بجمال امرأة رآها للمرة الأولى وهى مستلقية على سرير الفحص ! » .

ثم أسكت فلا أجيب لأننى شكاك ، ولأننى حين ذهبت للمرة الأولى معها إلى عيادته لنطلب من الله بنية أو غلاما وفرغنا من عرض المشكلة بالقول وجاء دور الكشف .

حين حدث هذا وقفت مزروعا فى فضاء الغرفة حائرا لا أدرى ماذا أفعل : أأخرج أم أنتظر ؟ وكان الارتباك باديا على زوجتى ، فألفيتنى فجأة أقفل الباب من خلفى وأنا خارج .

والثقة .. تجعلنا نمنح كل شىء .. فإذا خدعنا من نثق فيه كنا ملومين إذا كان هناك مفر من منح الثقة ، أما إذا فرضت علينا فرضا فالملوم هو الطرف الآخر .. أعنى ـــ الذى وضعنا فيه ثقتنا . !

واستمر العلاج ، و لم تحدث المفاجأة السعيدة فى هذا العام ، بل آلت الحال أسوأ من قبل حين أصيبت بنزيف كلفنا علاجا ونفقات كثيرة .

إننا قد نتقزز فى بعض الأحيان من أفكارنا ونشمئز منها ، لكننا لا نجد مندوحة من أن نسايرها ممسكين بالخيط من أوله حتى تعرف النهاية ، وذلك عندى خير من أن نصادر هذه الأفكار لحساب السلامة والراحة وعدم القلق ، وإلا مرضت بها نفوسنا كما تمرض أجسامنا تماما ..

ثم استعدت النصف الثانى من الحوادث ونحن على المائدة ..

مناقشات كثيرة متفاوتة بين الضعف والقوة ثارت بيننا ، كان أفظع ما فيها

أنها قالت يوما :

« ثم يجب أن تبرئ نفسى من هذه الوساوس لأن المسألة مسألة ثقة فإما أن يثق الرجل ؟ وإما ألا يثق .. »

ولم تكمل عبارتها ، بل تركت كفيها وعينيها يكملان ما قالت فخيرتنى بين البقاء والفرقة . ولكننى رأيت الحل أشد تعقدا من الإشكال نفسه لأن الثقة على طول الخط أخطر من الشك على طول الخط ، ثم أظهرت اقتناعها بوجهة نظرى بمرور الأيام فاتفقنا .

وكانت تومض وهى على المائدة فى هذه الليلة كأنها كوكب الزهرة فى سماء الريف وتضحك وتأكل ، وتهيئ جونا لليل سعيد .. غير أنى كنت فى هذه اللحظة أستعيد نظرتها إلى النافذة ونحن فى العربة محاولا أن أصل إلى حقيقة هذه النفس المتقلبة المثيرة ، وقمت عن الطعام وأنا أذكر آخر الحوادث ..

وكان فى صباح أحد الأيام .

فتحت يومئذ بيدى أحد أدراج زينتها لآخذ شيئا من الجلسرين كنت محتاجا إليه ، وكنت متسرعا أريد الخروج فسحبت الدرج حتى آخره .. ووجدت فيه أشياء كثيرة من التى تخص السيدات ووجدته مفروشا بصحيفة من إحدى المجلات ، وبينما أنا أفتش فى زحمة الحاجات عن الزجاجة المطلوبة استوقف نظرى صورة فى قاع الدرج كانت لخمسة من الشبان بينهم صورة الطبيب ، أخذت بمناسبة من المناسبات ونشرت فى المجلة ، ثم وقعت فى يدها ، وأرادت أن تحتفظ بها وأن ترى الصورة كل صباح دون أن تثير حولها ريبة فجعلت الصحيفة فى هذا الوضع ..

وارتعت من هذا التدبير ووصفت التى نسجت خيوطه بأنها مصيبة وأن فى استطاعتها أن تفتح لرغباتها أبوابا خفية لا يحس بها رجل . فجمدت فى

مكانى .. الدرج مفتوح ، والزجاجة فى كفى ، ووجهى فى المرآة حائل كالح خائف مخيف . لكننى صممت على أن أسكت ، وأن أراقب .

وفتحت الدرج فى الصباح التالى فإذا كل شيء كما هو ، وظل كذلك ثلاثة أيام ثم غيرت الورقة !

كل شيء فى الوجود صالح لأن يغذى الشك .. الشيء وضده معا ، طعام نافع.وقد كانت ثورتها تغذى شكى كما كان يغذيه رضاها ، ويثيره فى نفسى اهتمامها بى كما يثيره إعراضها عنى ..

ولما تناقشنا فى الأمر عزته فورا إلى المصادفة البحتة . والمصادفة العابرة التى تجعل العضو المجروح عرضة للمسات غير المقصودة . وانخرطت فى البكاء واتهمتنى بأنى أعذبها كما يعذب الطفل عصفورة ، وأن هذه المسألة يجب ألا يتكلم فيها من جديد لأن الكلام فيها أشبه بنبش المقابر .

وغاصت المشكلة إلى القاع حيث غابت فيه ، حتى مررنا الليلة بالميدان ونحن راجعان من السهرة .

* * *

ولما أوينا إلى غرفتنا بعد انتهاء العشاء ، كنت صامتا ، خامدا ..

وخيل إلى أنها مصرة على أن تمحو من نفسى ما أصابها وأن تعيدها إلى ما كانت عليه ساعة خرجنا من السينما فضممت على صدرها ياقة المعطف .

وفى طبيعة الناس أن يحترموا آلام أنفسهم وأن يدفعوا عنها بحمية فى كثير من الأوقات حتى ليغيظنا أن يحاول شخص إضحاكنا ونحن مهمومون . وخيل إلى أن زوجتى تغرينى وأنها تصرفنى عن أشياء يجب أن أقضى الليل مفكرا فيها ، مع أنها لو بدت واجمة لبات الأمر أكثر تعقدا وظلمة ..

فانظر كيف أن الشيء وضده طعام صالح لأن يغذى الشك ؟ .

وثرت فى وجهها فجأة حين أقبلت على بكل ما فيها ، امرأة تصنع خاتمة سعيدة لسهرة سعيدة قضينا شطرها الأول خارج المسكن . ثرت ، ولا تسأل إنسانا كيف ثار ورأيتها بعد ذلك كأنها جرحت فى كل مكان وأخذت أنوثتها تدفع عن كيانها متحصنة فى آخر خط فأدركت أننى مخطئ وأن نوازع كثيرة يجب أن يخفيها الناس عن الناس وإلا فسدت بيننا الأمور .

غير أنه لم يكن هناك مجال للرجوع فاشتبكنا فى جدال حاد وطفحت ذاكرة كل منا بما يحمله للآخر من أخطاء . . . ثم لففت نفسى باللحاف حتى رأسى وأخذت أرقب أنفاسى وهى تنتشر على وجهى فتدفئه حتى سرقنى النوم .

وفطرت فى الخارج وتغديت فى الخارج ، وجلست خلف زجاج أحد المقاهى أدخن وأشرب القهوة وأرقب المارة بعين بليدة ، حتى دخل الظلام فوجدتنى أقوم قاصدا إلى غير وجهة ، لأننى كنت لا أريد أن أدخل البيت .. ثم نمت فى الخارج .

وفى صباح اليوم التالى رأيتنى مصرا على ما فعلت ، فتغديت فى الخارج ، ونمت فى نفس اللوكاندة .

وبهذا غبت عن المنزل ثلاثة أيام . وجاءتنى الخادمة الصغيرة فى الديوان فى اليوم الرابع لتقابلنى فقلت لمن أبلغنى خبرها :

« قل لها تنصرف ! »

وتغديت فى الخارج ، وبقيت فى الخارج حتى هبط المساء فأحسست بحاجة شديدة للذهاب إلى البيت ، وندمت على أننى لم ألق الخادمة لأسألها عما جد بعد غيابى ، فقد كان جائزا أن يساعدنى ذلك على الانقطاع فترة أخرى .

ودققت الجرس ففتحت الخادمة الباب وعلى وجهها دلائل تعب شديد

وبدت عيناها أوسع من المألوف لأن وجهها نقص إلى النصف . وأخبرتني دون أن أسألها أن سيدتها مريضة ، وأن النزيف عاودها . وسألتها عن الطبيب فقالت :

« إنه جاء ... »

ولم ترفع إلىّ عينها .

ودخلت إلى غرفة النوم في اللحظة التي خرجت منها إحدى الجارات لتتوارى في الحجرة الأخرى . وكان ظهر المريضة في تجاه الباب ووجهها إلى الحائط ، وزمر من شعرها الأسود تبدو أكثر حلوكة تحت النور وبين بياض الأغطية ومنديل الرأس . ومددت يدى فأدرت وجهها بحركة لا تخلو من عنف ، وأنا راكع جوار السرير فرأيت صفرة المرض قد غطت وجهها وعنقها والجزء البادى من صدرها كذلك . ونجمت في قلبي حركة لا أعرف ما هي ، فيها قلق وخوف وميل إلى التسامح وشيء من الحب ، وأشياء أخرى ! لكنني سألتها في حدة :

— هل جاء الطبيب ؟

فانخرطت في البكاء ورأسها مائل إلى الأمام يكاد يختفي في الوسائد . لكنني حولت بصرى عنها فرأيت مجموعة من الأدوية موضوعة على المنضدة الملحقة بالسرير . ورأيت تذكرة طبيب مطوية كان عليها اسم غريبي .

ولاحت لعيني ورقة أخرى فإذا بها تذكرة طبيب عليها تاريخ اليوم السابق واستطعت في هذه اللحظة أن أدرك بوضوح تاريخ التذكرة الأولى وأن أعرف أنها قديمة ، وأنها عرضت على الطبيب الجديد ليراها كما هي العادة ..

وجلست على كرسي قريب منهكا كأنني جريت شوطا . وكان بكاؤها قد انقطع لكنها تشهق وكأنها طفلة . واستعدت في جلستي هذه تفاصيل

الليلة القريبة فوجدتها أحداثا مبهمة تصلح لكل تأويل ، كأنها كلام ضاربة الودع أو فاتحة الفنجان . فتنهدت وظللت فى وضع لا أرى فيه إلا ظهر المشكلة ، وظهر زوجتى الراقدة فى الفراش . حتى تذكرت فجأة حكاية الفلاح الذى هاجمه الذئب وهو فى الحقل فقدم إليه طعامه لقمة لقمة ليشغله حتى يجىء الفرج لكن حسابه خاب وبدأ الذئب يهاجمه فى نفسه !!

قلت فى نفسى :

« هذه هى قصتى مع الشك !! غير أن هناك فرقا واضحا بين المأكول فى القصتين ، هو أن كل شىء فى الوجود صالح لأن يغذى الشك.الشىء وضده معا طعام نافع . »

السكرتير الثانى

رجعت إلى البيت بعد ظهر اليوم ، وأنا ألقى على نفسى سؤالا لم أجد له جوابا .. لكننى على الرغم من كل شىء .. ظللت أردده !! ..

كنت الموظف الثانى فى سكرتارية مدير إدارتنا ، وكان الموظف الذى يسبقنى فى تحمل مهمات العمل أصغر منى سنا وأكبر منى درجة ، وأوسع نطاقا وآفاقا فيما يتعلق بالإطار الخارج عن الصورة والشكليات البعيدة عن الصميم ..

لكننى لم أكن أحقد عليه ، بل كنت على العكس فى بعض الأحيان ، أحمد الله الذى أقام بينى وبين مدير الإدارة مثل هذا الزميل الذى كون حاجزا شفافا يمنع عنى الدخان والغبار ، لأننى كنت أهاب هذا الرجل ..

كان من القادرين على أن يحيطوا أنفسهم بجو من التقديس والرهبة .. يجعل كثيرا من الموظفين ينسون نصف ما يريدون أن يقولوا بمجرد أن يأذن لأحدهم بالكلام ..

وكان هادئ الصوت ، بطىء العبارة ، وعيناه المتربصتان يبدو فيهما كلال سهر دائم .. وطربوشه أحمر زاه فى لون الطماطم الغضة ، يستقر على رأسه فى وقار جليل ، أو يقبع بعيدا هناك على بلورة المكتب .. وفنجان القهوة يعقبه فنجان من القهوة .. وفى كل مرة لابد أن ترتعش به يد الفراش وهو يصبه .

وقد علمنا مدير الإدارة التنبؤ بالجو كأننا فى مصلحة الأرصاد ، وأقصد

جوه النفسي وجونا في العمل .. فقد كنا نخمن ما سيلقاه أول موظف يدخل عليه ، لأنه حين يعبر البهو وهو في طريقه إلى غرفته ويلتقي بصره بالحاجب الذي يسند المصراع المتحرك بيسراه ويرفع يمناه على جبينه بالتحية — عندئذ تقع أول بادرة من بوادر المدير : فهو إن سخر بلطف من الحاجب ومن لحيته المستديرة الرائقة أو من نظارته ذات الإطار الفضي التي تشبه نظارات الكتبة العموميين ، أو إن حملق في وجهه بعينيه المتعبتين كالذي يفتش عن شيء ضائع ، أو يتأمل وجها غير مألوف ، أو إذا قال له بتعطف :

— هو انت لسه عايش يا عم ريحان ؟!

إذا حدث شيء من هذا تنبأنا لنفسنا بجو صحو ويوم لا ضباب فيه .. وإذا حدث شيئان معا غلب أن يكون اليوم ربيعيا مشرقا جميلا .. أما إذا دخل مكتبه لا يلوى على شيء فكثيرا ما نلقي عنتا ، وكثيرا ما تتعثر حاجات الناس على بلورة المكتب ..

لهذا لم أكن أنازع زميلي شيئا من اختصاصاته ، بل كنت أذكر المغارم والمغانم قبل إجراء عملية القسمة ، وأقنع نفسي حين تمسني الغيرة من تقدمه عليّ في الشئون الأدبية أنه إنما يجنى ثمار ما يغرس ، وليس من حق القاعدين أن يقتسموا الغنيمة مع المحاربين .

* * *

وأخذت شخصية مديرنا تستحيل بين الموظفين إلى أسطورة .. فقد كان يتفق لبعض الزملاء أن يجعلوا منها موضوعا للحديث حين يلتقون على القهوة في المساء ، أو يجمع بينهم الطريق بعد تشييع إحدى الجنازات ..

وتساءل أحد الشبان المرحين الذين كانت ترتعد فرائصه حين يستدعى للمثول بين يديه قائلا :

ـــ هل يستطيع هذا الرجل أن يبد و إنسانا عاديا ولو مرة واحدة ؟! كم أشتهى أن أراه فى موقف من المواقف التى يتشابه فيها الناس .. موقف من تلك التى لا يستطيع الإنسان أن يكون فيها إلا كما يكون غيره .. تماما !! وبعدئذ أعتقد أننى لن أخاف منه ..

فرد عليه زميل آخر وعلى وجهه تجعدات من لم يفهم مرمى الحديث :

ـــ على الرغم من أننى لم أفهم ما تهذى به ، فإنى أؤكد لك أن كثيرا من أمثال هذا الرجل أكثر وداعة من بعضنا فى حياته الخارجية ..

فرد الموظف الأول وهو يضحك :

ـــ من المحال أن تفهم الشيء من أول مرة يا سعد أفندى .. لذلك فإنه ينبغى لكى تفهم الحياة أن تفرّ بعد العمر الطويل من المقبرة لتعيش الحياة من جديد ..

فرد ثالث قائلا وهو يهز كتفيه :

ـــ ومع ذلك .. من يدرى ؟

واستطرد الشاب المرح :

ـــ الأعمال التى يعملها الناس بطريقة واحدة تعدّ على أصابع اليد .. أليس كذلك يا سعد أفندى ؟

وضحكنا جميعا وضحك منا سعد أفندى ، ثم انبرى أحدنا يؤكد بعد هدوء الجلبة أنه رأى وهو فى مصلحة التنظيم قبل أن ينتقل إلى هذه الإدارة رئيسا شديد القسوة ، لكنه ينهار حين يخبر بالتليفون أن أحد أطفاله مرتفع الحرارة أو أنه أصيب بإسهال ..

لكننى قلت فى نفسى وأنا منصت إلى حديثهم هذا :

قد يكونون محقين ، ولكن .. لماذا يحدث هذا فقط ؟! .. لم يشيعون عن القاسى أنه رقيق جدا فى حياته الخاصة ؟ وما أشبه ذلك بما يقولونه عن الأسد :

« إن ملك الحيوان لا يفترس امرأة » !!

لعلنا نريد بأمثال هذه الأفكار أن نبنى لأنفسنا حصونا صغيرة على الطريق المخيف !! .. وإلا .. لماذا لا نعتقد العكس ، مع أن عكس كثير من الأشياء يكون صحيحا ؟! لماذا لا نقول على المدير الرقيق : إنه قاس فى حياته الخاصة ؟ ذلك ، لأن الطريق أمامه ولسنا بحاجة إلى أن نبنى عليها لأنفسنا حصونا صغيرة ..

ثم حدث بعد أيام أن خرج زميلى من عند المدير أصفر غاضبا مرتجفا هاتفا . وكانت غضاريف أنفه تعلو وتهبط من اضطراب أنفاسه .. وحين استقر على الكرسى ضرب المكتب بما يحمله من أوراق . وأكد لى بصوت خافت أنه أضحى محالا أن يتفاهم بعد هذا اليوم مع المدير .. ثم أكد مرة أخرى أن الشعور متبادل بحمد الله ، وأن المدير طلب منه ألا يعرض عليه الأوراق بعد اليوم ، ومعنى ذلك أن صفوف الاحتياطى ستدخل المعركة .. أى أننى سأحل محل زميلى منذ الصباح التالى ...

وقضيت ليلتى فى نوم كئيب .. يسلمنى كابوس إلى كابوس ، وأهبط من جبل إلى مغارة ، ويطاردنى نمر فأدوس على ثعبان .. ولما استيقظت مع الصباح على صوت الراديو يرتل القرآن ، ارتديت ثيابى من فورى وخرجت كما يخرج الطالب الألكن فى طريقه إلى امتحان الشفوى ! :

وقال زميلى لى بعد أن حضر المدير :

ــ هلمّ .. هلمّ إذن .. إن حظك حسن يا صديقى ، فادخل لأنه رائق المزاج .. لقد قال لعم ريحان كلمته المألوفة ، بل وابتسم له ..

لكننى لم أسارع إلى الدخول .. وركبتنى برودة من يخلع ملابسه فى الجو المكشوف لينزل إلى الماء البارد !! وقلت لزميلى وأنا أفرك يدى :

ـــ لا تكن عصبيا هكذا يا شكرى .. أمجنون أنت ؟! ليس معنى ما حدث أمس أن الرجل ينحيك عن نطاقه .. بالعكس .. إن الغضب الحقيقى سيبدأ منذ اللحظة التى تنفذ فيها هذا الأمر .. المخالفة طاعة فى بعض الأحيان ! ادخل ! . .

ورأيت بوادر الرضا تتخايل على وجهه الأشقر فكففت عن الكلام .. وأحسست رغبة داخلية مبهمة عميقة .. بعيدة .. هناك فى أعمق أعماق قلبى .. حقيقتها أمل فى ألا يداخل زميلى وأن أنوب عنه وأحتل مكانه ، وليكن ما يكون !!

لكن فترة تردده لم تطل .. ورأيته يتأبط الأوراق ويزرر سترته ، ويميل طربوشه على جبينه بزاوية معينة ويأخذ نفسا طويلا ، ثم ينقر على الباب .. وبقيت أنا حيث أنا تدور المشكلة أمامى فتختلط معالمها كما تتداخل أجزاء العجلة الدوارة .. ولم يلبث شكرى أن خرج وهو يضحك ضحكة نصفها فى بطنه وعلامات الظفر ترقص على وجهه .. ولما انتهى من الضحك أقبل على يقول :

ـــ لك حق .. لك حق .. لقد نسى الموضوع حتى أحسست أن المخالفة طاعة فى بعض الأحيان ..

لكن هذا الحديث جعلنى أشك فى أن شكرى يحتال ليضخم السدود بينى وبين الرجل .. وبقى هذا الشك فى قلبى كامنا على بعد ، حتى كان صباح أحد الأيام فدق التليفون دقته الأولى ، فلما رددت وجدت المتكلم شكرى .. وبعد تحية مختصرة مطبوعة بطابع السرعة وعدم الاستقرار قال لى : إنه لا يستطيع الحضور اليوم لأن أمه أصيبت بالشلل فجأة وهو سيتخلف ليدبر لها الأمر ، ثم وصف لى مكان كل ورقة يجب أن تعرض اليوم على المدير .

وانتهت المحادثة !

وقرأت فى وجه عم ريحان وهو داخل علىّ بعد حضور المدير أن جونا اليوم سيكون خماسينيا وقد يكون مطيرا .. لكننى تأبطت الورق وزررت السترة وأملت الطربوش على طريقة شكرى وإن لم يكن هذا من عادتى ، ثم نقرت الباب .. ودخلت ..

كان أول ما وقعت عليه عيناى هو عيناه المتربصتان اللتان يبدو فيهما كلال السهر .. وكانتا أكثر شرودا ، والسيجارة بين أصابعه قد تآكل منها جزء كبير .. وكان رأسه عاريا وخيال الطربوش منعكس على بلورة المكتب أحمر زاهيا فى لون الطماطم الغضة ..

وألقيت تحية الصبح وأنا مبتسم طبعا ، فكان جواب التحية سؤالا هو :

— أين شكرى أفندى ؟

فلخصت له الأمر تلخيصا لأنه كان فيما يبدو مؤرقا طول الليل .. وكان الوقت شتاء فأحسست أن درجة الحرارة قد انخفضت كثيرا حتى تجمدت قدماى فى الحذاء .. وشعرت بعد وضع الملف على المكتب أن الزكام قد ألهب خياشيمى ، وأنه لابد من استعمال المنديل .. وفعلت !! ولكننى لم ألبث أن شعرت بحاجة جديدة .. شعرت أنه لابد أن أعطس ، فتراجعت إلى الوراء وتملقت هذه الرغبة التى لا تدفع ولكنها تخلت عنى .. فتقدمت إلى حيث وضعت الدوسيه قريبا من جنبه الأيسر .. وأخذت أول ورقة ، فراودنى العطاس ودب فى خياشيمى دبيبا لذيذا شاغلا مزعجا .. وأحسست مرة أخرى بحاجة إلى استعمال المنديل ..

وكان هو ينظر إلىّ كأنه يفتش فى وجهى عن شىء ضائع .. ثم تحسنت الأحوال قليلا ، وبدأت أقوم بالعمل على وجه يقرب أن يكون عاديا .. لكن

الأمور عادت فتعقدت حين أنكر أسلوب خطاب من الخطابات كان موجها إلى جهة كبيرة فقلت له بأدب خائف :

ـــ حاضر .. إذن فلأعد كتابته مرة أخرى .. وأعرضه عليكم ..

فأجابني في هدوء لم يخل من تيئيس :

ـــ لن تستطيع أكثر مما فعلت .. سأمليه عليك ..

والتقت عيناى بعينيه المتربصتين وأنا آخذ الريشة ، وزحزحت إحدى المحابر فجعلتها قريبا منى .. و لم أنس أن أستعمل المنديل قبل أن يبدأ الإملاء . وتجاهلت دبيب العطاس فى خياشيمى ، وحولت بصرى عن المدير فرأيت صورة وجهى على بلورة المكتب والورقة البيضاء أمامى .. ثم اتسقت العملية بعد كتابة الديباجة ..

ثم نسيت العمل لأننى اندمجت فيه ، ثم ذكرته مرة أخرى وتخيلت أن المدير يعجب من ربكتى فتعقد الأمر .. وكانت يدى تمتد إلى المحبرة بحرص بعد أن عرفت طريقها إليها .. وأملى علىّ جملة طويلة خفت أن أنسى منها شيئا فغمست الريشة بسرعة ثم استرجعتها ، فأحسست بيد المدير تقبض على معصمى لتمنعنى من الكتابة ، فأفقت ..

نظرت مذعورا فوجدت عينيه اللتين يبدو فيهما الكلال قد فاضتا بالرحمة . وفى ملامحه مزيج من الشفقة وعدم الرضا فى وقت واحد .. وقال هو يرمى السيجارة إلى الأرض ويدوسها بقدمه :

ـــ كفاية .. حصل خير .. أجل كل شيء حتى يعود شكرى أفندى ..

كنت قد غمست الريشة فى فنجان القهوة المشروب القريب من الدواة ، فعلق البن بالريشة ، فأمسك الرجل معصمى .. وكان لابد أن أنصرف فانصرفت فى صمت مخجل .. وحزين .. لكننى جلست أستعيد النظرة

الرحيمة وتمنيت لو أننى رأيتها منه قبل ذلك الحادث .. ربما تغير الأمر و لم يقع ما وقع !! .. وتذكرت ما قال الموظفون ونحن عائدون من الجنازة وتوصلت إلى أن شخصية كريمة قد ترقد فى أعماق القساة لكنها قليلا ما تظهر !! ثم إذا كانت تظهر ، فلماذا لا تظل طافية على السطح ؟

وتساءلت مرة أخرى : أليست شخصياتنا المتعددة مثل ملابسنا المتعددة ؟ فهل يجوز لنا أن نحتفظ بالجميل منها فى صوان الملابس ، ونظهر بالخشن التافه الرخيص ؟ .. لماذا لا نمشى بين الناس بأحسن ما نملك ؟!

وانتقلت خواطرى إلى زميلى شكرى .. فألغيت ظنونى فيه ، و لم أعد بعدها أحقد عليه .. لكننى عدت إلى بيتى بعد ظهر هذا اليوم وأنا أردد السؤال السابق : لماذا لا نمشى بين الناس بأحسن ما نملك ؟! .. لماذا ؟! .. لكن السؤال بقى بلا جواب !! .

راحت السَّكْرة

ما زلت أذكر أيام طفولتي وكأنها حادث لم ينقض بعد . حادث أعيش فيه ، وأتمنى ألا يفارقني الإحساس بذكرياته ، لأنها مرحلة من العمر لم يكن لها مثيل في المراحل التي لحقتها .

كان بيتنا ملكا لي بكل ما فيه .. بأبي وأمي وأثاثه والخادمة العجوز التي تقوم على خدمتنا ، وكان كل شيء من حولي يحوطني بعناية تؤجج رغبتي في الحياة ، وتجعلني أحس أن كل غرفة من غرف البيت ركن من أركان الجنة .

وكنت في السابعة من عمري . لكنني كنت أدرك بطريقة مبهمة أن أبي وأمي يعانيان مشكلة حقيقية تظهر آثارها بطريقة مزدوجة ، فرع منها يكون همّا يظلّل أحيانا وحدتهما ، وفرع آخر يكون عناية أكثر من المطلوب تتجه إليّ فتسعدني أحيانا وتضجرني أحيانا أخرى .

ولم يكن أبي يقيم معنا طوال أيام الشهر ، فقد كانت له أعمال تجارية تستلزم غيابه عن البيت ، لذلك .. كنت أحس في الأيام التي يغيبها أبي عن أمي — التي كانت تنتقل لتنام معي في حجرتي — تكاد تكون ساهرة إلى جواري تعدّ أنفاسي طول الليل . وكنت أوقظها من النوم لتحكي لي الحكايات ، فتمسح النوم عن أجفانها بيدها المتراخية ، وتصحو وتتثاءب وتقبّلني من خدي أو جبيني ، وتبدأ في التحدث إليّ وهي تعبث بشعر رأسي حتى يأخذني منها النعاس مرة أخرى .

وفي ليلة من الليالي التي كان أبي غائبا فيها ، استيقظت من النوم في وقت

متأخر من الليل فوجدت أمي جالسة فى الفراش وهى تجهش بالبكاء .. فوثبت كالعصفور الخائف وتعلقت بعنقها وأخذت أسألها والدموع تجرى على خدى :

ـــ لماذا تبكين يا ماما .. لماذا تبكين يا ماما ؟!

فما كان جوابها إلا أن أخذتنى بين ذارعيها ، وبدأت تروح عنى وكأنها نسيت همها ثم قالت لى :

ـــ لا تقلقى نفسك بهذه الأسئلة ، فأنت لا تزالين صغيرة بالنسبة لمشاكل الحياة .

لكننى لم أدر أى سبب دفعنى إلى أن أسألها قائلة :

ـــ هل تبكين يا ماما من أجل خالتى ؟ ... إن كنت تبكين من أجلها فلابد أن أشاركك البكاء ..

وبطريقة طفولية ـــ تستطيع أن تضحك منها إذا تصورتها ـــ انخرطت أبكى بحرقة كأننى فتحت صنبورا ، وعندئذ أفاقت أمى على ضرورة تهدئة جأشى ، فأخذتنى بين ذراعيها وصارت تهمس قائلة لى :

ـــ لا يجب أن تبكى يا حبيبتى .. إن حادثة خالتك ليست هى السبب فى حزنى .. إننى مريضة يا حبيبتى .. لكن .. يجب ألا تبحثى عن سبب لكل شىء ترينه فى البيت . إننى أحس مغصا شديدا ، وأبوك غائب عنا ، فكان ذلك كافيا لإثارة أحزانى ..

وبينما كانت أمى تقول ما تقول كانت عيناى فى نصف نعاس ، أستعيد ما حدث لخالتى فى الأسبوع الماضى ، فقد مات أحد ولديها وأصبح ابنها وحيدا ، وسمعتها تحدث أمى عن ذلك بخوف وانكسار . وأيقظنى هذا الإحساس من النوم مرة أخرى ، فهتفت أسأل أمى وكأننى تذكرت شيئا :

— ماما .. لماذا لا تلدين لى أختا أو أخا ، ما دامت خالتى حزينة لأن ابنها أصبح لا أخ له ؟ .إننى ..

فلم تدعنى أمى أكمل الكلام وقالت لى بلهجة حادة :

— يجب ألا تفكرى فى مثل هذه الشئون .. فكرى فقط فى دروسك .. إن هذه الأمور لا يصرفها أحد إلا الله ..

ثم أضجعتنى إلى جنبها ورقدت إلى جوارى .

و لم يمض على ذلك بضعة شهور ، حتى فوجئت بأمى تعدّ عدتها لدخول أحد المستشفيات لإجراء عملية لم أعرف كنهها ، و لم يبح لى أحد بسرها . كانت نقطة تحول فى حياة أسرتنا الصغيرة لأننا ما لبثنا أن جنينا ثمرتها ، فعرفت أن أمى أصبحت تحمل فى أحشائها جنينا سيكون عما قريب أخا أو أختا لى .

و كانت هذه السعادة الطارئة سببا فى ازدياد الهناء الذى يرفرف على بيتنا ، وكان حديث الأبوين والمعارف والجيران كله يدور حول الحادث المرتقب . أما أنا فكنت أشعر أننى أسعد من أمى وأبى بكثير . وأخذت أعد الأيام ، وأرتقب قدوم الضيف حتى جاءنا ذات يوم ، وبشربه أبى عقب دخوله من السفر ، فرأيته يثب من الفرحة فى أرجاء الشقة كأنه ينط الحبل ، ثم حملنى بين ذراعيه ، وصار يقبلنى فى مرح لم أر مثل خفته فى حياتى .

ومع مرور الأيام ، أصبحت أشعر أن شيئا ما كان قريبا منى .. قد أخذ يختفى كما تختفى مبانى الشاطئ مع رحيل السفينة . وأن شيئا آخر قد أخذ يظهر . لم تعد قبلات أبى الملهوفة عند عودته من السفر — على الأخص — متجهة إلىّ ولا باحثة عنى . فقد أخذت وجهة أخرى ، كانت هى أختى بالطبع . أما أمى فقد أصبحت كثيرة المؤاخذة لى .. ربما كان ذلك وهما من أوهام ذلك العهد ، لأننى كنت آخذ فى الحقيقة أكثر مما يجب . كنت أوذى

خادمتي وأبكي ، وأفكر وأنا وحيدة في طلب أستطيع أن أعجز به أبي وأمي ، حتى إنه حدث ذات ليلة أن طلبت منهما عنبا في فصل الشتاء ، فضحك أبي ملء شدقيه وقال لي :

— إن أشجار العنب نفسها ، لا أوراق عليها في هذه الأيام . فهلا طلبت زبيبا يا بنيتي ؟!

لكنه بعد أن جاء أخي ، أحسست أن نظراتهما كلها تتجه إلى الناحية الأخرى .. إليه . وأن أبي وأمي وأركان المنزل أشياء لا حق لي فيها . وبشعور مرهف صرت أتلقى كل منحة حنان منهم على أنها فضلة من الفضلات ، وكانت أمي صاحبة الخطأ الأساسي في موقفي كله ، وقد أستطيع تصوير ذلك في حادثة واحدة .

حين كنت في الخامسة عشرة من عمري ، كان أخي في الثامنة تقريبا . وكنا في شهر سبتمبر ، حين سافرت أمي ، ونحن معها ، لحضور زفاف ابن أخيها الكبير في أحد المراكز في الريف . ولما خرجنا نحن الثلاثة ، تبين لنا بعد أن ذهبنا إلى محطة السكة الحديد أننا أخطأنا في تبين موعد القطار ، فقد فهمنا أنه يقوم في الثامنة والربع صباحا ، على حين كانت حقيقة الأمر أنه يقوم في الثامنة إلاّ ربعا . ووقعت أمي في ارتباك ، لكن أحد الحمالين أشار عليها أن تأخذ طريقا آخر يوصلها إلى المكان الذي ترغب فيه . وكان القطار أحد قطارات الركاب يقف في محطات متقاربة ، كأنه ينادي على سكان القرى والفلاحين في الحقول .

وفرحت أنا وأخي بهذه الرحلة ، ولو أنه بدا على أمنا التذمر ، وأخذ القطار يجر أذياله على حدود الصحراء الغربية ، وأنا وأخي واقفان في النافذة وراء الزجاج ، كل منا ينظر إلى الدنيا بعين تناسب سنه ، وتتمشى مع

أفكاره .

وفى لحظة من اللحظات التى كانت أمى تنفخ فيها ضجرا ، سمع ركاب القطار — ونحن بينهم — فرقعة تدل على أن شيئا تحطم ، وبعد مرور الوهلة التى تعشى العيون فيها فى أمثال هذه المواقف ، تبين لنا أن لوح زجاج فى إحدى النوافذ قد تحطم من حجر قذفه أولاد الفلاحين على الطريق الموازى للسكة الحديد . فتطاير الزجاج ولم تكن هذه النافذة إلاّ النافذة التى نحن وراءها أنا وأخى . وصرخت أمى وصرخ أخى ، وتجمع الركاب حولنا والقطار يواصل سيره ، وأخذت أيد كثيرة تفحصنا من كل ناحية حتى تبين أننى أصبت بخدش فى جبينى ، وأصيب أخى بجرح فى كفه .

ولا أستطيع أن أقول إن أمى لم تهتم بى ، ولكننى أستطيع أن أقول إنها بعد الوهلة الأولى التى اعتنى بى فيها أحد الركاب ، انصرفت تماما إلى أخى ، فأخذته بين أحضانها وهى تضمّد كفّه ، كأن أحدا سيخطفه منها .

على أن الأمر فى حد ذاته بالنسبة لى ولأخى لم يكن خطيرا ، ولكننى بعد أن هدأت الزوبعة التى قامت فى القطار بسبب الحادث ، جلست مطرقة أتذكر تفاصيل ما وقع مرة أخرى ، وأن أمى اعتبرت كل شىء بالنسبة إلى سليم العواقب ، على العكس مما فعلته مع أخى .

وأعادت هذه الحادثة نفسها ، وكأنها صورة مكررة ، ليلة رجعنا إلى القاهرة ، وأخذت أمى تقص تفاصيل ما حدث على والدى ، فوجدت العناية والحنان يتدفقان كأنهما الجدول.. لكن إلى الناحية التى لم أكن فيها . ولما كنت قد ذقت هذا اللون العزيز من قبل ، فإننى لم أنم من البكاء طوال هذه الليلة .

ووجدتنى بعد ذلك ، أستمع فى حسن تتبع إلى الحكايات التى تحكيها لى

زميلتى « فوزية » ونحن فى المدرسة عن زوجة أبيها وما تفعله بها .. لأننى أحسست بانفصال عاطفى ، أعقبه انطواء على نفسى ومشاكلى وأنا بين والدىّ . بل كنت أحسد « فوزية » أحيانا .. لماذا ؟! لأن الشرّ والحرمان اللذين كانا يلحقانها من مصدر يكاد يكون هكذا دائما عند كل الناس . أما أنا ...

و لم أستطع بعد ذلك أن أرمى بمشكلة من مشاكل شبابى إلى أمى المنصرفة عنى .. لأن مشاكلنا أغلى ما نملك .. نعم إن مشاكلنا أغلى ما نملك ، لأننا لا نلقى بها إلاّ بين أيدى أعز الناس وعلى شرط أن نثق بهم .

ثم كانت فى حياتى المسألة الهامة التى تعترض حياة كل فتاة .. عرضت لى وأنا فى السادسة عشرة من عمرى ، وكانت صديقتى « فوزية » هى الدليل التائه الذى قاد خطواتى على هذا الطريق .

كانت تحدثنى دائما عن صديق لها تلقى من كلماته ونظراته واللحظات القصيرة التى يجتمعان فيها — كل سعادة وصفاء — وعرضت علىّ إحدى صوره الشمسية ذات يوم ، وقرأت علىّ إحدى رسائله فى يوم آخر ، وحدثتنى عن حبات الدموع التى ذرفها من أجلها يوم التقى بها بعد غيبة كان سببها مرضها ، وباختصار .. كانت كل يوم تلقى فى نفسى جمرة جديدة تشعل بها رغبتى فى رؤيته .

واتفقنا على ذلك ذات أصيل من أيام شهر مايو . وكانت هى طليقة السراح تقريبا لأن زوجة أبيها مدّت لها فى حبل الحرية . أما أنا فإننى فقدت الذخيرة القلبية التى تجعلنى أجد فى الكذب على أمى شيئا قبيحا فلفقت لها كذبة ، وخرجت أصيل ذلك اليوم إلى الموعد المضروب .

وأخذتنى دهشة كبيرة حين رأيت الشاب صاحب الصورة وفى رفقته

شاب آخر .. أحسست بخزى دافعه الكبرياء ، لأننى ربأت بنفسى أن أكون فى موقف تفرض علىّ الأمور فيه فرضا . لكن هذا الإحساس مالبث أن فارقنى حين بدأنا نمشى نحن الأربعة فى اتجاهنا إلى النيل . وفارقنى إحساسى هذا ؛ لأن الشاب كان لبقا فى حديثه ولأننا أحيانا نتنفس — مكرهين — ما يكون فى الجو الذى يحيطنا من أجل أشياء فاسدة .

وركبنا زورقا وسرنا به فى النهر . وكان الشابان يتبادلان التجديف بنا ، ونحن آخذون بأطراف الحديث . وكانت كوامن نفسى منطوية على خوف وتطلع ولذة تشبه ما كنت أشعر به حيال رحلتى فى النهر . وما أن هبط المساء حتى عدنا إلى الشاطئ ثم افترقنا .

وكنت على العشاء شاردة اللّب تماما ، أشعر كأننى مريضة لا أجد طبيبا أستشيره ، ولذلك عدت لاستشارة المرضى المجربين من أمثال « فوزية » وغيرها ، فخرجت بمجموعة من الوصفات ، لم يكن فيها شيء من النفع ..

وأغرب ما فى الأمر ، أننى وجدت نفسى طول الليل أفكر فى الشاب الذى كنت خائفة منه ، وانتقلت لى العدوى فأصبحت أقرأ على « فوزية » خطاباته كما كانت تفعل هى من قبل . وبدون قصد منى ولا منها ، صرنا كأن كلاً منا تنافس الأخرى فى قطع الطريق إلى النهاية مع الشاب الذى تعرفت عليه .

ولعلّ أعجب شيء صادفته فى صديقى الذى أحدثك عنه أنه لم يشعرنى أنه يريد منى شيئا قط .

فكان يطارحنى الهوى وكأنه يتحدث عن مسألة عامة لا تخصنى ولا تخصه . ودار بى ذات مساء فى شوارع القاهرة وهو يعلق على كل ما يراه ، حتى وقف فجأة أمام أحد المنازل وقال لى بأدب جم :

— هنا يقع سكنى الصغير فهل يروقك أن تريه ؟

ولما نظرت فى عينيه ، لم أجد فيهما أثرا للتدبير ولا اللهفة ولا الريبة ، وظل واقفا مكانه وظللت واقفة مكانى ، ثم تحرك هو إلى الأمام فإذا بى أتبعه . ومنذ هذه الليلة أحسست أن كل التجارب التى استعرتها من صديقاتى تجارب فجة ، فقد رأيت بين جدران السكن إنسانا آخر غير الذى كان يحدثنى فى الخارج ، خاليا من النعومة والرقة والحذر والترفع ، فهبطت السلم أتعثر فى كل درجة ، وأنا أضم كفى فى حالة من الرعب لا توصف ، كأن شيئا ثمينا كاد يسقط من يدى ، غير أننى ما زلت متشبثة به .

وقررت بعد ذلك أن أقاطعه ، لكننى لقيت فى سبيل ذلك عناء لا يوصف ، ذلك لأننى كنت أجتاز أول تجربة فى شبابى .

ومن الأشياء التى كانت تسيل دمعى أن أمى كانت تصدق كل سبب أذكره لها على ذبولى أو شرودى ، وصرت أبتهل إلى الله أن أجتاز هذه التجارب بلا أخطاء ونذرت له أن أكون من طراز آخر إذا قدر لى أن أكون أما .

وبعد أيام تلقيت رسالة منه عن طريق « فوزية » كانت مليئة بعبارات الاستغفار والندم وكان من عادتى أن أردّ على كل رسالة تأتى منه ، وأن أجد لذة فى الكتابة إليه ، وبعد أن مضى الهزيع الأول من الليل أخذت وأنا جالسة على مكتبى وحيدة أستعيد كل ما كتب ، ثم بدأت أكتب الرد .

وأخذتنى دوامة من الأفكار حين استعدت تفاصيل العلاقة من أول حلقة ، وسرح خيالى فصوّر لى أشياء وقعت وأشياء لم تقع : رأيتنى معه فى زورق على النيل ، ومعه فى أحد المطاعم نتناول الشطائر ونحن واقفان ، ومعه فى مسكنه ليلة أصرّ على أن يعدّل لى تسريحة شعرى بمشط كبير ، ثم وقف خلف الكرسى الذى كنت جالسة عليه .. ورفع رأسى إلى أعلى ، وربّت

بكفه على خدى بلطف ، وراعنى فجأة أن التربيتة تحولت إلى لطمة ، فتلفتّ حولى فإذا أبى واقف خلفى وإحدى يديه على الرسائل الأخرى والأخرى على كتفى .. فقد أخذتنى سنة من النوم فانكفأت على المكتب . كان عائدا من السفر لتوه ، وكانت أمى نائمة ، فلما فتح الباب بمفتاحه ورأى النور فى حجرة مكتبى دخل ليرانى .

وأخذ منى كل شىء ..

وفى صباح اليوم التالى كنت ماثلة أما مهما للمحاكمة ، فلما سألتنى أمى عن السبب فى وقوع هذه الكوارث ، لم أجد بدّا من أن أقول لها :

— إنها إحدى صديقاتى .

قالت والغضب يصبغ وجهها بلون قرمزى :

— ولماذا تسمعين كلامها ؟

فقلت :

— لأننى لم أجد أحدا سواها يقول لى شيئا .

فهزّ أبى رأسه مؤمنا ونظر إلى أمى نظرة متوعدة .

وهأنذى أسطر هذه الحوادث وأنا فى الخامسة والعشرين ، بعد أن وضعت أول ولد : ولا أزال أذكر تفاصيلها كأنها وقعت أمس ، وذلك لسبب واحد ، هو أننى لا أريد أن أكون سببا فى أن يرتكب أحد أبنائى الأخطاء بسبب غربته فى داره ، وافتقاره إلى توجيه أبويه .

رحم الله خالتى زمزم

فى إحدى ليالى الحصاد ، تحت أشعة القمر البنفسجية ، وأنا عائد من عزبة قريبة ، مررت على حقل « أبو العطا الحسينى » ..

والناس فى القرية لا يقولون « أبو العطا الحسينى » كما قلت أنا الآن ، لكنهم يقولون : « أبو العطا جوز زمزم » . ويحدث أحيانا أن يقولوا إذا ما أرادوا التفرقة بين « زمزم » هذه وامرأة أخرى تحمل الاسم : (زمزم مرات أبو العطا) . وسمعت بعض الحاسدين أو الفكهين يطلقون على كل زوجين متحابين إلى درجة التعبد ، أو زوجين لا يكادان يفترقان ـــ سمعتهم يقولون : « أبو العطا وزمزم » .

وعندما كبرت وتركت القرية وتعلمت ، كنت أرى (أبو العطا وزمزم) فى المدينة .. هنا فى القاهرة .. لكن ليس بين النساء والرجال ، لا الأزواج ولا الأحباب ولا العشاق ، بل كنت أرى صورة هذه المرأة وهذا الرجل فى العدد والآلات ..

لعلك الآن تعجب منى .. إننى أقول الصدق .. كنت عندما أرى مقصا كبيرا أو أسطوانتى معصرة أو أى آلة أخرى يبدو فيها الازدواج وهى تزاول عملها ، تقفز إلى ذهنى صورة هذين الزوجين اللذين لن أنساهما . فإذا استطعت أن تنسب عملية القص إلى أحد جزئى المقص أو عملية العصير إلى إحدى أسطوانتى المعصرة ، استطعت أن تنسب العمل فى المنزل أو الحقل إلى أحد الزوجين دون الآخر .. كل الأعمال تتم بهما معا بطريقة تدعو إلى

العجب والحب .. وربما الحسد .

و لم يكن (أبو العطا الحسينى) فى الحقل ليلة مررت عليه ..

وكانت حقول القمح آهلة بالفلاحين .. تسمع خشخشة المناجل فى النبات الجاف كأنها صوت غول يأكل شيئا .. والأغانى الفرحة باللؤلؤ الأصفر ، تتردد متفرقة على رقعة الحقول تحت نور القمر الساهر الهادئ ..

وكنت كلما مررت على حقل « عم أبو العطا » لا أستطيع أن أكف بصرى عنه . وفى هذه الليلة لم يكن هو هناك .. بل كانت زوجته وحدها .. لا تزال قريبة من الطريق .. نعم .. بينى وبينها ثلاثة أمتار من أرض محصودة فرشت بالنور وبقايا أعواد القمح ..

كانت خالتى زمزم وحدها فى جلباب من الشيت ، يبدو فى الليل مائلا للبياض ، وفى وسطها حزام هو طرحتها ، وفى يدها المنجل .. تحصد القمح ..

وأحسست أن المقص فى هذه الليلة بفردة واحدة ، فعجبت كيف يعمل المقص هكذا ؟ فألقيت عليها تحية المساء ونزلت إلى الحقل ، وكان أول ما عملته أن قامت واقفة .. نصبت طولها الفارع ، وظهرت أشعة القمر على وجهها الأسمر الذى لوحته الشمس وابتسمت :

— أهلا بك .

و لم يكن على رأسها غطاء .. وبدا لون شعرها وطول عنقها وتقسيم جسمها كله . وكانت تلهث قليلا من الجهد ، والمنجل فى يدها على هيئة قوس عظيم تنعكس على نصله المعدنى أشعة القمر . ولما سألتها عن عم أبو العطا تنهدت ومالت بعنقها قليلا نحو كتفها وقالت :

— إنه مريض .. محموم

ففهمت أنه عاجز تماما عن العمل . وأنها غلت له لبن المساء كله وفتت فيه خبزا وشربت معه الشاى ، وألقت عليه غطاء ثقيلا وجاءت إلى هنا ..

وتصورته واقفا إلى جوارها . كان طويلا مثلها ممشوق القامة كأنهما صبّا فى قالب واحد . نعم . ولم يكن لهما ذرية .. يسكنان دارا صغيرة جدا لكنها كانت مزينة بجنينة .. وأنت لا تستطيع أن تعرف ما هذه الجنينة التى كنا نقف عندها مبهورين ونحن صغار ، ونتمنى أن يفتح لنا « رضوان » باب هذه « الجنة » ولو مرة فى العمر ..

كانت هناك شجرة عنب كبيرة تزحف سوابقها على « المقعد » وتتهدل غصونها على واجهة الدار . ولم يكن أحد يأكل عناقيدها إلا هذان الزوجان وهما يتسامران .

يذهبان إلى السوق معا ويعودان من السوق معا . وفى مولد السيد البدوى يرحلان إلى طنطا كل عام لشراء كسوة السنة ، ويظلان طول العام يحلمان بالرحلة الأخرى .

قلت لخالتى « زمزم » وهى واقفة فى الحقل وشىء خفيف من رائحة عرقها يفوح فى المكان :

— حتى حصاد القمح تعملينه يا خالتى ؟

فضحكت وقالت :

— وهل هذا العمل للرجال وحدهم ؟! .. لا .. ليس بينى وبين عمك أبو العطا قسمة . كل الأعمال نقوم بها معا .. أنت تعلم أننا بلا ذرية ، ولذلك فنحن نتعاون على كل شىء . نحن من الفقراء كما تعلم .. حياتنا مبنية على نصف فدان ، ونملك دارا صغيره مملوءة بالطيور .. وعلى سطح مقعدنا نخزين الذرة .. وتعريشة العنب خلقت من سطحنا جنة . لكن .. سأحكى لك

حكاية هل من الممكن أن تسمعها ؟ اجلس .

وجلسنا على كومة من أعواد القمح وبدأت خالتى « زمزم » تحكى بجرأتها المعهودة عن الليالى العشرين التى نامتها على ظهرها ، لا تخرج من الدار ولا تفارق رأسها الوسادة عقب حمل لم يتم .. تبعه نزيف ..

ومرت على وجهها سحابة سوداء من حزن غامض حين عرض لها ذكر الذرية ، لكنها استردت حماستها وصفاءها فورا وعادت تقول :

ـــ هناك أعمال لا يقوم بها إلاّ النساء ، مثل الخبز . واستطعنا مدة مرضى أن نتصرف فيه بواسطة إحدى جاراتنا . لكن هناك شيئا مهما لا بد أن أعمله أنا أو عمك أبو العطا ، وهذا الشيء لا يعمله فى الريف عادة إلا النساء .

فقلت لها :

ـــ عرفته .. غسيل الملابس .

فضحكت خالتى « زمزم » وقالت :

ـــ لا .. أيها التلميذ .. فقد كان عمك « أبو العطا » يغسل لنا الملابس بالليل .. لكن هناك شيئا آخر لا يمكن لريفية أن تسمح لجارتها بعمله هو حلب اللبن .. وجاهد عمك أبو العطا حتى حلب البقرة .. ورجع والعرق يبلل رأسه واللبن يسيل على أكمامه .. لكن .. كان لا بد من ذلك .. وحدث فى إحدى الليالى التى كان يحلب فيها أن طرقت علينا الباب إحدى جاراتنا ، فقام الرجل وفتح لها ، فدخلت ولما رأت إناء اللبن تأكدت أننى نهضت من المرض ، لكن كانت مفاجأة لها حين سمعت أننى فى الداخل فكتمت ضحكتها وخرجت من الدار .. وثار عمك « أبو العطا » على الموقف .. لكننى ثرت فى وجهه أنا الأخرى وقلت له : من الذى يركب النورج ؟ ومن الذى يدير معك الطنبور؟ ومن الذى يعزق معك الأرض ؟ ..

ليس فى العمل عيب .. ألم نر ونحن فى طنطا رجالا يخبزون العيش ورجالا يحلبون اللبن ورجالا يغسلون الملابس ؟! ... اسمع يا أبو العطا .. وفى طنطا رأينا الممرضة فى المستشفى الأميرى (تغير) للحاج جمعة بعد ما عمل عملية البواسير ، وفى اليوم نفسه دخلت « فاطمة » بنت خالتى قسم أمراض النسا وعمل لها العملية شاب فى الثلاثين .. اسمع يا أبو العطا .. أين العمل الخصوصى للرجال والعمل الخصوصى للنساء ؟! لماذا تستحى الآن من حلب اللبن ؟ وعلى كل حال إن البقرة لم ترفض يدك .. والطنبور والمنجل لم يرفض يدى .. عيب يا شيخ ..

وضحكت وقلت :

ـــ هذا جميل .. لكن .. لماذا أسمع الناس دائما يحسدونكما على حب كل منكما للآخر ؟ .. لماذا مثلا لم يفرق بينكما عدم الخلف .. مع أن الناس فى الريف ينظرون إلى هذا الأمر نظرة جادة .. لماذا ؟!

فضحكت خالتى « زمزم » بمرحها المعهود ، مرحها الذى يعرفه سكان الناحية وقالت :

ـــ إننا دائما مشغولون .. إن عمك أبو العطا متخصص فى زراعة الخضار وأنا معه .. وعمك أبو العطا متخصص فى تسمين العجول وأنا أيضا .. ومتخصص فى تربية الدواجن وأنا كذلك .. ومتخصص فى فتل الحبال وجدل المقاطف وأنا أجيدها .. ومتخصص فى غزل الصوف ونسج البطاطين .. وأنا أتقنها .. ومتخصص فى عمل الحصير وأنا مثله ..

وشعرت أننى مذهول حين أخذت أقسم ساعات النهار والليل على ما يمكن أن يزاول فيه هذان الزوجان بعض هذه الأعمال .. وكانت هى ساكتة تضرب الأرض بطرف المنجل فتحفر فيها وتضحك بين آن وآخر . وتذكرت

يوما أن أبى أراد أن يشترى حبلا فقال لى :

ــ من عند عمك أبو العطا .

ومرة دخل علينا ببطانية من الصوف وقال إنها من عند أبو العطا .

فأدركت أنه ليس هناك وقت للأفكار ولا للخلاف ولا للشجار للتفكير فى المآسى ولا لعوامل الخوف ..

وأفقت على صوتها مع طرقات المنجل قائلة :

ــ لماذا سكتّ أيها التلميذ ؟

فقلت :

ــ إننى متعجب .

قالت :

ــ من أى شيء ؟!

فقلت :

ــ لماذا لا يعمل النساء والرجال فى القرية مثلكم ؟

فضحكت وقالت :

ــ أنا عملت هكذا لأنى عاقر .. وعندما يأتى يوم تعرف فيه المرأة أن صنعتها فى الدنيا ليست الخلف فقط فإنها ستعمل مثلى .

قلت :

ــ لكن .. أنت خفيفة الروح يا خالة زمزم .. إنى ألاحظ أن الناس كلهم يحبونك .. حتى الطيور والماشية والدواجن ..

فضحكت وقالت :

ــ أنا يهمنى شيء واحد ، هو .. أن أموت قبل عمك أبو العطا . مثلما ماتت جميلة قبل .. جميل ..

فسرحت بخاطرى أذكر « جميل وجميلة » .. حتى ذكرت أنهما زوجان من الكلاب كانا يحرسان حقل الخضار .. وكانا فى غاية الرقة والنظافة .. لم يكونا مثل كلاب الأرياف .. تتمرغ فى التراب وتتسكع فى الحوارى . بل مثل كلاب الخواجات فى النظافة والدربة .

وكانا يسمعان كلامها ويفهمان قولها .. وهكذا كانت بقرتها وطيورها ..

لم أر خالتى « زمزم » مرة إلاّ وتذكرت العمل والحب والمشاركة الحقيقية . ولم أر « عم أبو العطا » مرة إلا وتذكرت العمل والحب والمشاركة الحقيقية . ولم يكن لهما ذرية .

واستجاب الله أمنية خالتى « زمزم » فماتت قبل زوجها .. ولكن زوجها ظلّ يرعى كل شيء بعدها . غير أن الدنيا صممت على التحول بسرعة .. فأصبح ذات يوم فرأى الشلل يجرى فى تعريشة العنب فأخذه التشاؤم .

وجفت التعريشة . وعاش فى حقله وسط الخضار يحرسه كلبه « جميل » ورأيتهما ذات يوم .. الكلب ينبح وحده وعم « أبو العطا » يغنى وهو يعزق فى فتور أغنية حزينة .

ثم مات « أبو العطا » فى كوخه فى الحقل فى إحدى ليالى الشتاء .

وهام الكلب « جميل » على وجهه .. هاجر من القرية ولا يدرى أحد مكانه .. وزعم أحد الفلاحين أن القطار دهمه وهو يعبر الجسر فى نفس اليوم ..

ليالى النور

لا شيء يسترعى النظر ويستولى على الانتباه مثل انفضاض « السامر » وانتهاء « السوق » وانصراف المدعوين من « حفلة عرس » .

كل هذا يذكرنا بالنهاية .. خصوصا فى حفلة العرس عندما تقع العين على أيدى « الفراشين » وهى تطفىء عقود الأنوار ، وتنتزع الرايات من مواضعها . وعلى أيدى أهل العرس أنفسهم وهم يحاولون التخلص من كثير من باقات الأزهار التى تحمل بطاقات مرسليها ودعواتهم ، وطيب تمنياتهم .

إن منظر الرحيل .. والغروب .. وهبوط القمر خلف خط الأشجار ، أو سور من الأسوار ليهيج فى النفس أضعاف ما تفعله أضداد هذه الحوادث ... لماذا ؟!

ــ لماذا ؟!

وأخذ حسن أفندى يكرر كلمة « لماذا » هذه ، وهو يهبط السلم فى طريقه إلى بيته بعد أن غادر الشقة التى فيها العرس ، وبعد أن انصرف كل المدعوين .

وكانت زوجته العجوز البدينة نوعا ، ذات الأرداف الثقيلة تعتمد على ذراعه وهما يهبطان الدرج ، وفى رأس كل منهما أفكار . وكان ضجيج الفراشين عند الباب قد بلغ أشده ، والحصان الفتى أمام العربة واقفا يتململ ، كأنه يتعجل ــ بدوره ــ العودة إلى الإسطبل .. وألقى حسن أفندى وزوجته نظرة أخيرة على واجهة البيت قبل أن ينادى بصوته المتعب على سيارة

أجرة ، ليركب هو والسيدة حرمه إلى حيث يسكنون .

وفى السيارة لم يكلم أحدهما الآخر ، ولو أن جسميهما كانا متلاصقين ، وفى المنعطفات كانت السيدة ترتمى عليه بكل كيانها ، كأنما يلذ لها أن تشعر أنها لا تزال فى ظل رجل ، مثل الفتاة التى زفت إلى فتاها منذ لحظات .. والفرق بين المرأتين ضئيل جدا ، هو أن عمر العشرة بين الأولين خمس وثلاثون دقيقة ، وعمر العشرة بينها وبين حسن أفندى خمسة وثلاثون عاما !!.

وفى هذه اللحظة تنفس حسن أفندى وهو يضع كفه على عاتقها كأنه يخاف عليها من الضياع .. وبعد دقيقة واحدة وضعت هى يدها على بطنها لعلها كانت تحس مغصا لكن هذه الفكرة أسلمتها إلى فكرة أخرى .. إلى عدد الوحدات التى أنتجها هذا العمل . ما مات منهم ومن عاش . وما كان رجلا فتأبط ذراع امرأة وخرج من البيت . وما كان أنثى فأخذها « العريس » وانصرف !

— دنيا ! .. آه .. دنيا ! ..

وسحبتها من أفكارها هذه الكلمات الشجية ، وتنهيدة محشرجة من التدخين ، خرجت من صدر حسن أفندى ، فنظرت إليه بعين فيها آثار كحل خفيف . وعلى فمها ابتسامة تشجيع فى الوقت الذى وقفت فيه سيارة الأجرة تحت النور الساطع أمام المنزل المطلوب . وصعد الزوجان سلما غير مرتفع كان متناسبا فى عدد درجاته مع خمسة وستين عاما يحملها حسن أفندى ، وخمسين سنة — مع إهمال حساب الأرداف — تحملها زوجته سكينة هانم .

ووقفا عند باب الشقة ولهثا قليلا ، وأخرج حسن أفندى المفتاح من جيبه ، وجعل يتحسس الثقب بأصابعه ليفتح ..

وكان الظلام سائدا فى الداخل ، والبيت خاليا من كل نفس ، حتى الخادمة كانت بائتة فى الخارج وفى نهاية الصالة سمع الزوجان أنينا صادرا من بعيد ، وأمسكا أنفاسهما لحظة ، حتى أيقنا أنه من ضمن الأصوات المبهمة مجهولة المصدر والغرض والتى تسمعها الأذن فى السكون .. لكنه كان آتيا إليهما من أحد المساقط ، عبر النافذة المفتوحة فى نهاية الصالة .

وبدأ الزوجان يتكلمان بعد أن دخلا غرفة النوم .

حسن أفندى يخلع بذلته ، والست سكينة تخلع فستانها .. وفى الحجرة بقية عطور وعلى منضدة فى الخارج بقية فواكه .. وفى رأس الاثنين بقية نشوة . وفى الجسم آلام محمولة من سهر الليلة وإدمان التفكير .

ـــ دنيا ! .. آه .. دنيا ! ..

ومرة أخرى خرجت هذه العبارات من صدر حسن أفندى المحشرج من التدخين ، وهو يتمدد فى الفراش ، وجلست سكينة على حافة السرير عند قدميه تماما وهو ممدد ، متشاغلة بعد أن خلعت ملابس الخروج ـــ بتذويب قدر من الأملاح فى نصف كوب من الماء لتشربه قبل النوم كأمر الطبيب ، وكان حسن أفندى مغمض العينين ، كأنه يتذكر حلما فى اللحظة التى كانت الزوجة تحاول فيها قراءه أفكاره .

ـــ لماذا تتنهد يا حسن ؟

وفتح عينيه وقال لها :

ـــ كما يتنهد الحمال بعد وضع الحقائب الثقيلة .. حركة طبيعية كما ترين يا سكينة !

فأجابت بعد أن شربت ما فى يدها .

ـــ أسعد الله ليلتها ويبض عرضها .. هذه آخر بنت من أولادنا غادروا البيت كلهم ، وكلهن ..

وأغمض عينيه من جديد ، كأنه دخل فى حلم .. فجأة سمع صوت زوجته يقول فى رفق ولين :

ـــ هل أنت تعبان يا حسن ؟

ولم تنتظر جوابه بل استطردت :

ـــ إننى أحس أن ألما فى مفاصلى .. آه .. زينب بنتنا الآن تعانى الليلة الأولى التى تعانيها كل فتاة يا حسن ..

وضحكت فى خوف ونشوة ، كأنها بنتها العذراء التى كانت تستقبل فى هذه اللحظة من التجارب ما يثير الخوف والنشوة . ثم عادت إلى ذكر الآلام .

ـــ إن يدى تؤلمنى من هنا .

وأمسكت بيد زوجها من عند الرسغ وجعلت تتكلم :

ـــ من هنا .. تمام .. هل لا حظت يا حسن أننا تزوجنا يوم عشرين من الشهر ، وها هى زينب قد زفت فى يوم عشرين .. آه ..

ـــ لعل الله يكتب لها من التوفيق ما كتب لأمها ..

وضحك حسن أفندى فى مرح ، ومرت بخاطره ذكريات ولدت منذ خمسة وثلاثين عاما ... أيام كان الفم آهلا بأسنان أقل لمعانا من التى به اليوم ، لكنها كانت من صنع الله .. والعين تنظر بلا نظارة والسلم ذو الدرجات الثمانين لا يجعل أنفاسه تلهث . ومنظر قميص سيدة على حبل غسيل يجعل نفسه ترغب .

ـــ دنيا .. آه .. دنيا !

ـــ ماذا يا حسن ؟

— هل تذكرين يا سكينة ؟

فضحكت فى خبث وهى تتمدد إلى جواره وكان النور موقدا يفرش الملاءة البيضاء ، فزهت به أكثر وأكثر ..

ثم قالت الزوجة وهى تخفى نظرة عينيها :

— ماذا تريد أن تقول ؟

— كان الجو حارا ليلة زواجنا .. كنت فى تلك الأيام أرشق من الغزال .. وقد رحلنا إلى الإسكندرية ، فحولنا البحر إلى شيء أحلى من العسل فى شهر عسلنا الشهى .

— هل تستطيع أن تجرى على الرمل ونلعب بالماء بنفس الخفة ؟

وتنهدت وضحكت فى أسى ، ونظرت فى عين زوجها نصف المنطفئة بعين نصف منطفئة ، فاضطرت أن تقرب وجهها من وجهه كأنها تقرأ فى كتاب صغير الخط فأحس كل منهما بنفس الآخر ...

ومن الطبيعى أن تحدث هنا حادثة « قبلة » قال بعدها حسن أفندى :

— دنيا .. آه .. دنيا !

— إننا أعطينا الدنيا أشياء جميلة يا حسن : رفعت وصالح رجلان ولهما أولاد ، وعلية وزينب ، الأولى أم والثانية عروس ! ...

فضحك الزوج وقال :

— لقد ظهرت أوراق الحياة على فروع جديدة .. ها ها غير الفرعين الأصليين .. أنا وأنت .

فتحسست خده وهى تقول :

— لا .. لازلنا بخير ، غير أن طريق لذاتنا قد تغير .

— كالذى لا تقوى صحته على التدخين فيستعمل النشوق ، لكن نفخ

السيجارة شيء ونغمشة النشوق فى الخياشيم شيء آخر ..

وضحك فى شبه مرح وكان الليل قد أوغل ، وران النعاس وأطفئ النور .

وكما يساعدنا إغماض عيوننا على تخيل منظر ما ، أخذت الظلمة التى هبطت على غرفة نوم العجوزين فى المسكن الصامت والليل الربيعى ، تغذى خيال الزوجين بذكريات أيام سعيدة .

— سكينه ..

— نعم .. مالك تنادى بحسرة ؟! هل أنت متضايق ؟! لو عشنا ألف سنة سنبقى أحبابا .. هل تحس خلاء البيت ؟

— لا .. لأنك فيه .

— هل ستعود إلى الغزل مرة أخرى ؟! ينبغى أن ننام .. نحن متعبون .

* * *

وارتفعت الشمس ، لكن أحدا من الزوجين لم يكن قادرا على النهوض من الفراش . وتذكرت الزوجة وهى تحمل نفسها حملا أنه من الضرورى أن تذهب « لتصبح » على بنتها « العروسة » وكان حسن أفندى لا يزال نائما وصفرة غير عادية تلون وجهه هذا الصباح ، رأتها زوجته ، فأحست بشىء من القلق .

كانت جالسة ، وحشية السرير هابطة تحت أردافها ، فصارت المرأة وكأنها جالسة فى حفرة ، خاطبت نفسها :

— سأقوم .. سأجهز الحمام قبل أن أوقظه من النوم .. يجب أن أسرع .. سأذهب إلى العروسة ...

ولما تقلقلت لتنزل صحا حسن أفندى ، فجاءه صوتها حنونا عذبا وقلقا ، فيه سؤال عن الصحة مبهم غير صريح .

ـ صباح الخير .

فرد بصوت متعب فاتر نائم :

ـ صبا ح النور .. آ .. سأذهب إلى دورة المياه .. خذيني من يدى يا سكينه .. آه ... دنيا .. إنها الحياة .

ولما كانا سائرين معا جنبا إلى جنب إلى دورة المياه بدا الرجل شديد الإعياء ، وبدت هى ثقيلة الأرداف والهم والخجل وكأنها اكتشفت فجأة صحة قول زوجها :

« إن أوراق الحياة قد ظهرت على فروع جديدة .. غير الفرعين الأصليين » .

المروحة البيضاء

لم يكن يعرف أين تقع حارة عبد الباقي بين كل هذه الحارات الملتوية في حي الخليفة . لكنه كان واثقا أنه لن يضل الطريق إليها ، فسيهتدى إلى المكان حتما بزوج « الكلوبات » المعهود الذى يعلق عادة على عمودين عند أقـرب منعطف يؤدى إلى البيت .

وفى هذه الحارة كان يسكن أحد زملائه فى العمل . وقد انتقل اليوم إلى رحمة الله والد هذا الزميل وهو الآن فى طريقه إلى زميله ليجلس مع المعزين ويتطلع فى وجوه الجالسين بطريقة لن تلبث أن تبعث الملل فى النفس .. وبين فترة وأخرى كان يتوقف ليمسح عرقه بالمنديل ثم يعيد وضع طربوشه على رأسه ، ثم يسأل أحد الناس عن موقع هذه الحارة ، حتى ظهر لعينيه وسط الظلام النسبى الذى يخيم على هذه الأماكن عمودان حملا « كلوبين » يئزان فى الحر ، وقد تجمع حولهما الأطفال ووقف أحد الفراشين فى قفطانه يدفعهم عن التجمهر عند المدخل .

وكان السرادق المنصوب ضيقا جدا يتناسب مع عرض الحارة ومـع المساحات الضرورية التى يجب أن تترك للمرور وأبواب البيـوت على الجانبين . وتبعا لذلك كان مستطيلا ثم ... لأننا فى موسم شديد الحرارة والرطوبة فقد كان سقف السرادق مكشوفا لم يغط بقماش ، فلا يرى فى أعلى السرادق إلا الأخشاب المستعرضة التى علقت فيها « الكلوبات » . ومن وراء الأخشاب تقع عين الجالس إذا رفعها إلى أعلى على النوافذ المفتوحة ضرورة

والتي يسودها الظلام حتى لايتاح لأحد الجالسين أن يرى وجها من الوجوه المطلة لتتفرج أو تستمع إلى القرآن .

وكان فى السرادق أخلاط من الناس ، فيهم أفندية ومشايخ وأرباب حرف يغلب على مظهرهم أنهم من طائفة المعمار . عرف « صالح » ذلك من جلابيبهم ذات الأكمام الضيقة وأكفهم التى تبدو متضخمة الحجم ومما تناثر من حديثهم ـــ حتى والفقيه يقرأ ـــ حول أسعار الجبس والأسمنت والحديد والخشب . وكان الفقيه أجش الصوت ضخم الجثة كبير الرأس . وشاءت المصادفة أن يكون مجلس « صالح » فى تجاهه بالضبط ولذلك جالت فيه عينه فجعلت تفحص كل شيء فيه ، من جبته الخضراء إلى قفطانه الكمونى إلى الشجة الواقعة فوق حاجبه بالضبط . وكان قبيح الصوت يدل تلحينه للقراءة على الفقر المدقع الذى اتصف به العزيز الراحل ، كما كان يشجع المستمعين على أن يتحدثوا فى شئونهم خصوصا إذا ما كانوا شلة واحدة يشغلهم شأن من الشئون .

وجاء زميله فجلس قليلا إلى جواره وقدم له سيجارة ، وتبودلت الكلمات المألوفة ثم تركه بسرعة ، وانصرف ليشرف على طرد فرقة من الصبيان كانوا يحملون فوانيس رمضان ويرددون أغنية « وحوى وحوى » على مقربة من المكان بحيث طغت أصواتهم الفرحة على حوار الفقيه الحزين !

وفى اللحظة التى كانت « وحوى وحوى » تتوارى فيها مبتعدة إلى عطفة أخرى كان أحد الجالسين على الكرسى المجاور لصالح يتلوى من الألم فى صمت من لكمة سددها أحد الغلمان من وراء القماش فوقعت على قفة الجالس .

كل هذه المظاهر جعلت « صالح » يبتسم لهذه المتاعب التى يتحملها الأحياء من أجل من رقدوا فى راحة أبدية . ولم تغرب الابتسامة من فوق فمه

إلا بعد جهد ؛ لأن المكان والزمان والجو المحيط بالسرادق ما كان يتفق مع جلال الموت .

وبعد قليل أخذ يحملق فى النافذة المقابلة له فى جلسته . وكانت تقع فى الدور الأول على مستوى حافة السرادق ، ولما كانت الحارة فى اتساع لا يزيد على خمسة أمتار فقد تبين أن أمامه شبح امرأة تتسلى بقزقزة اللب . وكان منديله لا يزال فى يده منذ دخوله إلى السرادق يجفف به العرق الذى لا يجف ويحوله بين لحظة ولحظة إلى مروحة يدفع بها الجو الخانق .

ولم يكد يصدق عينيه عندما رأى منديلا أبيض يتحرك فى الظلام النسبى فى يد المرأة المتكئة على النافذة ، ولكنه عاد فأدرك أن حرارة الجو التى دفعته لذلك هى نفسها التى دفعتها لذلك ، وأخذت عيناه تخدعانه أكثر فأكثر حين خيلت إليه أن المرأة تبتسم له ... ولكن كيف يتأتى أن يرى ابتسامتها ؟ وأجاب نفسه قائلا :

« إنها تبتسم ، تبتسم بلا مراء ... إن ابتسامتها تضىء ما حولها ! »

ثم استطرد فى أفكاره :

« لقد كنت أعرف منذ خمس سنوات فتاة من هذا الطراز . كنا إذا التقينا تحت نور ضعيف أو ظلام خفيف لمعت الابتسامة على فمها مثل أرقام الساعة الفسفورية ! »

ثم سكت واستغفر الله حين جذبه الفقيه من أفكار الحياة إلى ظلال الموت بآية كأنه نذير . فأفاق وحرك منديله كما يحرك المروحة فتحركت المروحة البيضاء فى النافذة المقابلة .!

ثم قال فى نفسه بعد أن شرب كوبا من الماء :

« إذا كان ما أراه حقيقة فمن عساها تكون ؟ ليس من المعقول أن تكون

امرأة مجهولة تماما ، سحرها جمال وجهي وبهرها ربيع شبابي .. فإذا سلمنا بأنني أعرفها فمن عساها تكون إذن ؟! »

وازدادت حملقته نحو الشباك وبعث بكل الإشارات ذات المعنيين التي يعملها الشبان إذا ما أرادوا جس النبض : فتنحنح مرة بعد مرة ومرر كفه بلطف على شعر رأسه اللامع ، وتنهد بعمق كما يفعل أهل الميت . وأبدى قلقه بوضع رجل على رجل وتبديلها سريعا ، حتى فوجئ بذراعها تتدلى من النافذة وتلمع غوايشها الذهبية فى النور المنبعث من السرادق وهي تشير بسبابتها إلى الأرض ، فلما نظر وجد منديله الأبيض ساقطا عند قدميه وكان قد وضعه على فخذه ثم غفل عنه . !

أخذ قلبه يدق بعنف وتململ وهو جالس . وسكت الفقية وقالوا له : « أحسنت ... » وبدأ ناس ينصرفون لكنه لم يغادر مكانه . وأخذت « الكلوبات » تئن وأصوات البنات الصغيرات يرددن على مقربة من السرادق مرة أخرى « وحوى وحوى » وهو يتابع ألحانهم بهزات من رأسه وابتسامة لاتدركها العين كانت عالقة على شفتيه .

وأتاه صوت طفل يقول فى النافذة التي فيها المرأة : « وحوى وحوى .. » ثم انقطع صوته لأن المرأة سحبته إلى الداخل . ثم عادا معا وأشعل الصبى شمعتين غرسهما على حافة الشباك ووقف بينهما وهي خلفه وكان « صالح » فى أشد اللهفة إلى اللحظة التي يتغير فيها الموقف فتأخذ هي مكان الطفل ولو لدقيقة حتى يتبين ملامحها .

وحرك منديله بعصبية ذات اليمين وذات الشمال كأنه يستعجل الأمر ولم يلبث أن سمع صوتها منبعثا من هناك يقول فى لهجة آمرة :

ـــ صالح ... صالح ... كفاية ... اوعى بأه !

ثم دخل وجهها فى منطقة النور بين الشمعتين .. وبدت ملامحها فى

سمرته على الكرسى فقد كانت هى هى بعينها .. هى « كريمه » التى كانت تسكن على مرمى البصر منه أيام كان طالبا . وهى بنت أحد تجار الفاكهة و لم يرها فى ذلك الوقت صالحة لشىء إلا لأن تدفىء قلبه من بعيد . لكنها كانت طامعة فى أن تشاركه حياته .

وكانت تتعرض له فى الحارة ليلا عندما تخرج متعللة بشراء بعض الحاجات أو عائدة من زيارة بيت خالتها . وكانت تبذل له الود الصافى والحب النقى ، وتهتف به وهى واقفة فى الباب والحارة ساكنة فيعرج ليخطف منها قبلة ويفر . وأهدت إليه « بلوفر » من الصوف من صنع يدها .. وكتبت له رسالة حب ساذجة بحروف كلها أغلاط .. وفى ليلة مولد النبى أهدت إليه حصانا من الحلوى تداعبه به !

وأخيرا عاد مرة من إجازة صيف فسمع الزغاريد ترن فى بيتها والأعلام ترفرف على بابه مع نسيم الخريف . وسمع أغنيات فتيات الحارة وهن يقلن فى مجموعة ساحرة « كتبوا كتابك يا نقاوة عينى .. » وبعدها لم تعد تعترض طريقه بل كانت نظراتها إليه لينة جارحة تحمل معنى كلمة « أصلنا مش قد المقام يا حبيبى ! »

ومرت الأيام وافترقا . ولكنه كان يتذكر حنانها غير المتكلف كلما اتصل بفتاة . وها هو ذا اليوم بعد أن بلغ السادسة والعشرين وأصبح موظفا فى « قلم الرخص » وظل أعزب لم يتزوج ، ومرت به تجارب لا بأس بها إذا قيست بعمره .

ها هو ذا يحس بليونة لياليها الطيبة وبخفقة قلبه كلما كانت تلقاه عمدا على هيئة مصادفة فى الحارة ذات الأرض المبلطة بقطع الأحجار ، ووقع حذائها على الأرض غير المستوية يجعل عودها الرطب يتلوى كأنها على وشك السقوط !

وعاد الفقيه يحشرج والأطفال يصيحون بأصوات أعلى لأن شموعهم على وشك الانطفاء « وحوى وحوى » فعاد هو يحرك منديله ، وعاد المنديل يتحرك فى الشباك فأطفأ نور الشمع الذى بجوارها !

ظل طول ليله يفكر فى هذا اللقاء ويفحص ما تركه فى قلبه من أثر . ثم أصبح فى حالة من أرهقه الفكر طول الليل . وذهب إلى مكتبه ، ومكث ساعة شارد الذهن ، ثم استأذن وخرج .

وعندما واجه ضجيج الشارع سأل نفسه : « إلى أين ؟ » فلم يعرف الجواب ، لكنه سمع هاتفا يدعوه إلى أن يذهب إلى حارة عبد الباق . سيمر أمام بيتها فى وضح النهار ليراها . ثم ليرى ما عسى أن تفعله عندما تتلاق العيون . وفى هذه المرة لم يضل الطريق .

وكانت الساعة تقارب الحادية عشرة صباحا والرجال فى العمل والنساء فى البيوت .. و ... ولم تزد أفكاره على هذا مطلقا لأنه لم يكن يملك خطة ، وكل ما فى الأمر أنه يريد أن يذهب إلى هناك .

وعلى مقربة من الباب لمح الشباك . هو بنفسه .. والعلامة رف من الخشب عليه ثلاثة أصص من الزرع تأكد حين رآها فى النهار أنها من الريحان ، وفى وسطها قلة عليها غطاء من النحاس كأنه خوذة . وكانت الحارة تعج وتصخب بباعة الخضروات لأن الناس فى رمضان يستيقظون متأخرين .

وذهب وجاء كأنه يفتش عن شيء .. ولم يلمح طيفها فى النافذة لكنه ما لبث أن رأى غلاما يسأله فى فضول هل يبحث عن أحد ؟ فرد بالجواب المشهور :

— نعم .. أبحث عن شقة خالية .

فرد الصبى فى حماسة المتلهفين إلى خدمة الناس :

ـــ شقة فاضية .. أيوه .. أيوه .. تعال .. فيه فى بيت خالتى أم حسنى .

وتبعه « صالح » كأنه طفل آخر وأحس ـــ لوهلة قصيرة بصغر نفسه . ولكنه نسى لأن الذى يدفعه ليس كثيرا إذا كان ثمنا لأن يلقى عليها نظرة ويسمع منها كلمة !

ومن الغريب أن الغلام وقف عند باب البيت . ولم يلحظ أن على بابه الخشبى ورقة « للإيجار » لأن نظره كان فى مستوى أعلى . وطرق الغلام باب « منظرة » إلى يسار الداخل وهتف :

ـــ خالتى أم حسنى .. خالتى أم حسنى .

ولكنه لم يسمع جوابا .. فعلق بخفة ظل كأنه يعرف مجريات الأمور :

ـــ لابد أنها خرجت .. لكننى أعرف الشقة .. إنها فى الدور الثالث .. تعال !

وعندما أخذا يصعدان السلم وقف الغلام . لأن صبيا صغيرا قد اعترض سبيله . وكان نازلا إلى الحارة فاحتضنه الغلام وقبله وحمله وصعد به .. ولما فرغوا من الدورة الأولى فى السلم وأصبحوا على مقربة من الدور الأول سمعوا صوت امرأة تنادى فى لهفة .

ـــ صالح .. صالح !

ثم أصبحوا جميعا على البسطة أمام مسكنها ، ورأى « كريمة » وجها لوجه !

ومضت دقيقة لم تستطع هى أن تنبس فيها بحرف . كل ما عملته أنها حملقت وجمدت وأمسكت ابنها ثم رفعته وحملته .

ووقف الغلام مبهوتا يجول بعينيه الواسعتين فى المشهد حائرا لا يدرى له تعليلا لكنه مالبث أن قال :

ــ لسه الشقة فوق ..

فوجهت « كريمة » القول للشاب ووجهها يحمل ملخصا لتاريخ مضى :

ــ لسه بتدور على سكن ؟ (ومصمصت بشفتيها) ، ما سكنت خلاص .. يا ريتك لحقتها ! .

فلما هم الغلام أن يعترض قالت « لصالح » :

ــ صدقني أنا .. فتش فى حارة أخرى . !

وكانت تطوق ابنها بذراعيها بشدة وهى توليه ظهرها لتدخل وترد خلفها الباب بخفة .

وعندما كان « صالح » يميل نحو اليمين ليسلك الشارع الرئيسى عائدا من حيث أتى ، كان يقول فى نفسه .

« إنها مخلصة .. إن من حقنا أن نتمتع بذكرياتنا . لكن .. لنا الويل إذا تركناها تفسد علينا حاضرنا أيا كان » !

يجب أن ننساها

فى الوقت الذى كان فيه ثلة من أطفالها يدبدبون بأرجلهم على رءوس الجيران ، كانت هى قد أرسلت خادمتها الصغيرة لتطرق باب الشقة على الذين يسكنون فوقهم طالبة منهم أن تطل السيدة على سيدتها من شباك المطبخ ليتكلما معا من مسقط النور .

وطلبت ذات الأولاد من جارتها التى فوقها أن تكون رفيقة فى استعمال الهون وألا تدع خادمتها تجر الكراسى أثناء التنظيف فإن ذلك جعل طفلها الرضيع يتفزز فى فراشه ويبكى بحرقة حتى رفض أن يتناول ثدى أمه ..

وردت الجارة العليا فى شىء من التذمر لأن الشكوى كان مبالغا فيها ولأن الطريقة التى عرضت بها قاسية . وكان بين السيدتين حوار غير مهذب تماما .. قصير الجمل .. كلماته ذات أشواك .. انتهى بأن أقفلت الجارة العليا نافذتها على مسقط النور .. بعنف ، ثم دخلت .

أما ذات الأولاد فقد كانت باقية فى مكانها تتمتم . و لم تشأ أن تدخل .. كأنما عز عليها أن تقفل سيدة فى وجهها نافذة .. ليس هذا عملا مهذبا مطلقا .. إنما العمل المهذب أن يتحمل الناس أخطاءها وهم صامتون ..

وانفتحت نافذة من الشقة التى تحتها فى هذه الوهلة . وأطلت منها سيدة مسنة يبدو أنها فى عمر من أصبحت جدة ، كان عليها سيما الهدوء والسكينة وعلى جبينها بريق من ماء الوضوء .. ورفعت رأسها إلى فوق ثم رفعت صوتها قائلة :

— إن الذين يزعجون الجيران من تحتهم مخطئون .. لا شك ..

فردت ذات الأولاد بعد أن أدلت وجهها إلى أسفل :

— هذا هو ما قلناه وقد أغضب النائم التى فوقنا حتى أنها أقفلت فى وجهنا الشباك .

— أرجو ألا تغضبى بدورك يا بنيتى السعيدة . حفظ الله لك أبناءك الذين يزعجون زوجى المريض بحركاتهم طول النهار وجزءا من الليل . الحق يرضى طرفا واحدا يا بنتى ، فأرجو ألا تغضبى . و ..

فأقفلت الجارة ذات الأولاد نافذتها هى الأخرى .. ودخلت .. وبقيت السيدة المسنة ، ذات الجبين الذى يبرق رافعة رأسها إلى أعلى وعلى وجهها ابتسامة متأملة وديعة ، ثم انسحبت إلى الداخل بعد قليل وظلل السكون على المسقط . ولكن أطفال الجارة التى تسكن الشقة الوسطى كانوا لا يزالون يتسابقون ، وعينا الرجل المريض من تحتهم مرفوعة إلى السقف وكفه على جبينه .

أما ذات الأولاد .. ساكنة الشقة الوسطى ، فقد لاذت بالمطبخ ووقفت تخرط البصل بحركة عنيفة وتسرد على نفسها بصوت مرتفع نوعا ما سأسرده عليك :

« ماذا نفعل فى الأطفال ؟ هل نقيدهم كما نقيد الدجاج ؟ إن السيدة التى تحتنا مخطئة والسيدة التى فوقنا مخطئة ، لأن جر الكراسى والدق بالهون أعمال يمكن أن تنظم ، لكن .. هؤلاء ليسوا أكثر شراسة من السيدة التى تسكن تجاهنا عبر الحارة ، إنها تحملق فى زوجى كلما رأته فى الشرفة كأنها تريد أن تأكله .. وهى أرملة وكثير من النساء يخطفن الرجال . من الأصلح ألا أرد عليها التحية وقد تصاممت وتعاميت عنها :

وسكتت قليلا ثم طلبت من خادمتها أن تقوم بعمل ما ثم عادت تكمل ما قطعت :

« كل الناس خداعون . وكل ابتسامة تخفي وراءها مكيدة . »

أم نعمات جادلتها مرة في السن فغضبت منها .

وأم محمود الخياطة أتلفت لها جلبابا ذات مرة فلم تعد إليها .

وإذا كسرت الخادمة كوبا كسرت لها نظيره إحدى أسنانها .

وأخيرا ..

جاء الدور على زوجها ..

وكان ذلك حين اختلفا على نفقات البيت . كان من المقرر أن تتولى هي الإنفاق متحملة معه كل مسئولية . وأصيبت الميزانية بعجز متواصل عللته هي بارتفاع الأسعار المطرد وعلله زوجها بقلة البركة .

وسألته في عنف شديد عن معنى (البركة) ففسرها لها بهدوء وبكلمة واحدة هي .. « البركة » أيضا ..

وكان يمضغ الرز بكثير من التؤدة ، في الوقت الذي كان يرميها فيه بهذه القنابل . وأخيرا وقفت تعدد له المساوئ ، تماما كما تقرأ « النيابة » عريضة الاتهام ، ثم تطالب بتوقيع أقصى العقوبة . قالت :

— أنا دائما في آخر الصف ووراء الناس ومع ذلك فأنت لا ترضى ..

خادمة في البيت ، وطباخة في المطبخ ، وغسالة أمام الطشت ، ومربية لقطيع من العفاريت ، ومع ذلك فأنت لا ترضى ..

وماذا تكون الخاتمة ؟ أن ترميني عظما بعد أن أكلتني لحما وعند ذلك لا ينفعني الندم .

وامتد حبل الجدال فأصبح الزوج في نظرها كثير الشبه بهؤلاء الخداعين

الذين يخفون مكيدة وراء كل ابتسامة ، لأنها لا تغفر .

و لم تفلح الليالى التالية فى فض النزاع بين الزوجين ، لأن الموقف تحول شيئا فشيئا إلى قضية وهمية تبناها العناد وشيء مما يسمونه المحافظة على الكرامة ، فاستعصت على الحل .

وأبدت رغبتها فى سفرها إلى بيت أهلها فلم يمانع الزوج ، فجمعت قطيع العفاريت وأكوام الملابس واستقلت أحد القطارات إلى هناك . ومن القاهرة كانت كلمات سحرية تنسى الضغينة وتسيل الدمع وتجعل الآباء ينسون كثيرا من إساءات النساء .

على أنها قد عادت وحدها بوحى من ضميرها كما قالت .. وبدافع شديد قاس من أخيها الكبير كما فهم الزوج وكما هو واقع الأمر .

وقضى الزوجان ليلة أولها عتاب وآخرها رضى .. حتى أصبح الصباح فسحبها من معصمها فى صمت واهتمام يدل على المفاجأة حتى ظنت أنه قد اكتشف كنزا .

وأخيرا فتح لها دولابا مهملا كبيرا جاثما فى أحد الأركان وجعل يخرج لها بيده ويعد واحد .. اثنين .. ثلاثة .. عشرون .. ثلاثون .. أربعون ، وكانت محملقة فى ذهول ساكنة لا تدرى ماذا تقول حتى إذا ما أكمل الزوج عده سألته باهتمام :

— كل هذه المناديل بلا غسل ؟ إنك لا تملك أكثر من خمسة ، فلماذا صاروا أربعين وكلهم وسخ ؟

— الفرق بين الخمسة والأربعين أن الخمسة تغسل فتعود نظيفة ، أما الأربعون فتتجمع على قذارة .

— نعم ..

ــ تصورى لو أننى استطعت أن أجمع مدة غيابك كل شيء يجب أن يرمى : شعرى بعد الحلاقة ، أظافرى بعد القص ، الأوراق المتخلفة عن شراء الحاجات من السوق ، عظام اللحم وبقايا الخضر .. الأطباق والأوانى التى أكلت فيها ..

ــ إذن لاستحال المكان إلى مقبرة لا يستطاع دخولها .

ــ وهكذا قلوب الناس . أقصد أن أقول كما أن هناك أشياء يجب أن تغسل أولا بأول وأشياء يجب أن ترمى أولاً بأول وألا تجمع من تفاهتها تلال تسد باب الحب فى طريق القلوب .. هل تفهمين ؟

ــ جدا ..

ومنذ ذلك التاريخ لم تعد هذه السيدة تحس إلا بأخطائها الشخصية لأنها حاولت أن تعالج قلبها الذى كان الكره يسكن كل ركن فيه .

أخطر من النار

كان أصدقائى يأخذون على أننى غير سهل التصديق لكثير مما أسمع حتى أن بعضهم كان يتهمنى بسوء الظن ، ويقول لى مداعبا : « صدق يا شيخ .. » فخير الناس أحسنهم ظنا بالناس .. وكنت أرد على قولهم هذا بابتسامة هادئة تحمل فى ثناياها تجربة شخصية مرت بى ، فتركتنى لا أصدق كل ما أسمع . وقد حدث أن حمل إلى أحد أصدقائى خبرا ، رفضت تصديقه بكل ما عندى من قوة ، فلم يكن من صديقى إلا أنه راهننى على صحته . ومرت الأيام فكشفت له حسن رأيى فى أخبار الناس ، وكسبت الرهان ، ثم نزلت عنه ثمنا لأن يعتنق صديقى مبدئى . فضحك الصديق وسألنى عن السبب الذى جعلنى لا أصدق كل ما يقال ، فأجبته باهتمام وإخلاص :

« أتحب أن تعرف ؟ إنها تجربة شخصية .. إذن فاستمع إلى يا صديقى ! »

* * *

كنت فى الخامسة عشرة من عمرى حين ضجت القرية ذات صباح ، بنبأ اختفاء العجوز التى تقع دارها فى جنوب القرية ، على مقربة من الحقول .

وكان الناس ينسجون حولها الأساطير منذ سنوات طويلة ، فهى تقيم وحدها فى الدار الصغيرة لا تكاد تبرحها إلا قليلا ، لذلك قالوا : إنها تحرس كنزها الذى ادخرته على مرور الزمن ، من هبات الأغنياء لأنهم يتفاءلون بطلعتها ، ومن الهدايا التى يبعث بها إليها أحد أصحاب الوجاهة والثراء لأنها أرضعته وهو صغير ، ومن ثمن الدجاج والأوز الذى كانت تبيعه فى كل

سوق ، وهى بعد امرأة عجوز وحيدة لا مطالب لها ، فأين تضيع هذا كله .. ؟ إنها تحتفظ به فى مكان من الأرض فى حفرة عميقة هالت عليها التراب . ومع هذا المال أساور من الذهب وقرط من الماس وأربعة خواتم تلقتها هدايا فى مناسبات سعيدة من الوجيه الثرى الذى أرضعته العجوز أيام أن كانت صبية ..

وأصبح الصباح — وكان يوما لا أنساه — فإذا بأهل القرية جميعا يتحدثون عن اختفاء العجوز .. لقد وجد باب دارها الصغيرة المجاورة — للحقول مقفلا ، ولكن بغير مفتاح ، فلما دفعه إنسان ما انفتح من فوره ، فإذا بوسط الدار خاليا من الساكنة ، وإذا به عدة حفر تدل على آثار بحث وتنقيب .

ولما ارتفع الضحى ولم تخرج العجوز من حجرتها ، طرق الجيران عليها الباب فلم يسمعوا صوتا ، وحين فتحوه ورأوا فى عتبة الحجرة حفرة صغيرة تدل على آثار بحث وتنقيب ، ورأوا قلة من الفخار واسعة العنق ملقاة على مقربة من الفرن ، يدل مظهرها على أنها كانت مدفونة فى التراب . وقامت القرائن على أن حادث سرقة قد وقع ، وجعل أهل الخير يبتهلون إلى الله أن تكون المرأة قد نجت من المكروه ، وأن يكون اللصوص الذين سطوا عليها بالليل قد رحموا أنفاسها الضعيفة وأيامها المدبرة ، فأخذوا مالها وتركوا روحها .

لم يكن الحادث وقت الصباح ، يزيد على ما قصصته عليك ، لكن ميزان الشمس لم يكد يميل للغروب حتى امتلأت القرية بإشاعة ، هى أن واحدا من الناس رأى رجلين يحفران الأرض قبل الفجر عند الساقية القديمة فى جنوب البلدة ، وأحس بأنهما يدفنان جثة ، وبعد أن هالا عليها التراب ، سار كل

منهما فى طريق ..

واجتمع أهل الرأى وأصحاب الشأن فى القرية ، وجعل بعضهم يسأل بعضا :

من هذا الذى خبركم بذلك ؟

فلم يكن الجواب إلا صورة واحدة لا تتغير :

« سمعنا كده » .

واستقر الرأى على أن يعاين الناس مكان الحفر عند الساقية القديمة ، وتجمع حول المكان خلق كثير يتأملون آثار الحفرة تحت وهج الأشعة الحمراء ، وجعل كل رجل يدعو على المجرمين بالخيبة ويطلب القصاص من الله ، وترك المكان ضعاف الأعصاب ، رهبة من بشاعة المنظر ، ورفع أحد الفلاحين فأسه ، وضرب بها الأرض برفق وحذر ، حتى لا تصيب الجثة ، وإذا برجل يعدو نحوهم ملء ساقيه وهو يقول والضحك يقطع أنفاسه :

« حوش إيدك .. حوش إيدك .. لا تصدقوا ما سمعتم »

فالتفت نحوه الناس ــ يسألون ، وقص عليهم القصة فلم تزد الحكاية على أن بقرة صغيرة عنده ماتت فلم يدركها بالسكين فدفنها فى هذا المكان حتى لا يرى الكلاب وهى تنهشها ، وحتى لا تفسد رائحة جثتها الهواء على مقربة من الدور ..

وهلل الصبيان لهذا الخبر ، ودمدم الرجال ، وضحكت النسوة . وجعل كل واقف يسأل الآخر :

« بس مين طلع الخبر ده ؟ »

وقد يكون أحد السائلين هو الذى « طلع الخبرده » .

* * *

وفى اليوم التالى لم تعد العجوز إلى دارها من جديد ، وظهرت علامات الرخاء على بعض الناس فى القرية ، لقد اشتروا ملابس جديدة ، ونجدوا مراتب وألحفة ، واشتروا يوم السوق لحما كثيرا وفاكهة وأرزا ، ورأوا قرطا لطيفا فى أذن إحدى البنات ، فكادت القرينة تقوم على أن السرقة كانت بيد هؤلاء الناس . أما العجوز فأمرها بسيط ، فمن الممكن أن تخنق وترمى جثتها فى الترعة القريبة من دارها ، حيث يحملها التيار السريع إلى بلد آخر ..

ومال ميزان الشمس للغروب مرة أخرى ، فملأت القرية إشاعة جديدة هى أن جثة العجوز قد عثر عليها فى قرية تبعد عن مكان الحادث بخمسة عشر كيلومترا .. انتشلت من الترعة هناك ، ولكنهم لم يعرفوا شخصيتها .

وسأل أحد الناس :

« مين اللى قال كده ؟ »

فأجاب آخر :

« اللى قال يا سيدى عزت أفندى محجوب قراها فى الجرنال . ده راجل متعلم ولا يعرفش الكذب . »

وذهب خلق كثير يسألون عزت أفندى عن حقيقة الحادث ، فأجابهم الشاب والشرر يتطاير من عينيه :

« الذى قلته يا ناس هو أن جثة عثر عليها فى الصعيد فى مجرى ترعة ونحن فى الوجه البحرى .. وأنا أقصد أن العجوز لو رمى بها فى الماء لعثر عليها .. ألم تكفكم إشاعة أمس ؟ »

وانصرف الناس يسخطون ، وجعل كل واقف يسأل الآخر :

« بس مين طلع الخبر ده » .

وقد يكون أحد السائلين هو الذى « طلع الخبر ده »

* * *

وفى اليوم الثالث خرجت القرية على بكرة أبيها لتتحقق من أخبار جديدة هى أن العجوز لم تقتل وقد ظهرت فى الوجود ..

كانت المرأة فى طريقها إلى القرية ، وقابلها الناس بحفاوة وتعجب جعلاها توشك أن تفقد رشدها ..

كانت فى نظر الرجال منهم أشبه بميت بعث قبل يوم البعث ، وكانت فى نظر الأطفال منهم أشبه شيء بالخيالات والأشباح .. فلما استقرت فى دارها جعلت تجيب عن أسئلة السائلين ، وفى عينيها الضعيفتين لهفة ، وفى قلبها الملهوف خوف وحذر . وقد حمدت الله قبل كل شيء ، على أن ما حدث .. حدث وهى غائبة عن دارها ، لأنه كان من الجائز جدا أن يسطو عليها أحد اللصوص فيقتلها قبل أن يتأكد من حقيقة ما تكتنزه من ذهب وفضة ، فتذهب المسكينة ضحية الإشاعات .

أما سبب غيابها المفاجئ ، فإن طارقا طرق بابها فى نصف الليل ، خافت منه أول الأمر ، ثم تأكدت أنه زوج ابنتها الوحيدة . فلما فتحت له الباب استشعرت من طريقة حديثه معانى المخاطر ، ولما استوضحته الأمر قال لها :

« إن ابنتها تعانى حمى النفاس بعد أن ولدت بنتا ثالثة ، وإن حالتها تسوء يوما بعد يوم ، وإنها تود أن تراها . »

وكانت العجوز تخوض طوال الليل بحارا من الأحلام المزعجة جعلتها تؤمن بأن ابنتها ستموت . ومن أجل ذلك كله تحملت مشقة السفر فى قطار الفجر إلى عاصمة المديرية ، لترى ابنتها قبل أن يفرق بينهما الموت .

أما الحفرة التى كانت فى العتبة فإنها كانت بيد العجوز ، أخرجت منها قلة من الفخار قديمة واسعة العنق ، دفنتها فى الأرض وفيها دراهم معدودات

ادخرتها لغوائل الزمن ، ثم أقفلت باب القاعة ، ولعلها لم تحكم إقفال باب الدار من الخارج ، لأنها كانت على ابنتها حزينة ملهوفة ..

ثم قالت العجوز والدمع يجرى على خدها المعروق :

لاذهب ولا فضة ولا أساور ولا خواتم .. إلاّ ستر الله .. »

قال أحد الواقفين لها :

« لو كنا نعلم أن زوج ابنتك قد انتقل إلى دمنهور لسألنا عنك هناك .. لكن .. لكن .. ما كنا نعلم عنوانه .. » .

وقال رجل آخر :

« ومن الذى حفر هذه الحفر فى ساحة الدار يا أمى ؟ »

فأجابت وعلى وجهها دلائل السخرية قائلة :

« الكلاب ... »

فقالوا :

« أى الكلاب تقصدين .. ؟ »

قالت :

« إن الكلاب التى تمشى على أربع لا تخون .. لابد أن شخصا بلغته الإشاعة — إشاعة أن عندى مالا — وأحس بخروجى فدخل الدار وعمل هذا الذى ترونه ، إنه ستر الله .. إنه فرشى وغطائى ..»

ثم جرت الدموع خدها مرة أخرى قبل أن ينصرف عنها الناس .

* * *

قال صديقى بعد أن فرغت من قصتى هذه :

« أنت على حق ، يجب ألا نصدق كل ما نسمع . » .

فقلت له :

« نعم يجب ، وبخاصة إذا كانت الأخبار منسوبة إلى شخص غير معين . هنالك يا صديقي لا تتحدد المسئولية وتصبح الأخبار أشبه شيء « بابن الحرام » بولد السفاح .. بمن لا يعرف له أب ولا أم .. »

فهمس وهو شارد وعيناه تجولان حوله فى الفضاء البعيد :

« قاتل الله الإشاعات ... إنها شيء خطير .. إنها يا صديقى أخطر من النار » .

حصاد المطامع

كان أسف الحاجة سكينة على زوجها يوم مات أسفا لا يوصف ، فعلى الرغم من أنه كان شيخا فى الخامسة والسبعين من عمره ، فإنه كان يملأ عليها الدار أنسا ووجودا ، فهما زوجان لم ينجبا قط ، يعيشان على كفاف من الرزق لكنهما كانا فى حال مستور ، فلم تبد عليهما الفاقة فى يوم من الأيام .

أما الزوجة فقد كانت فى الستين من عمرها يوم مات زوجها وبكت عليه بدموع سخية ، و لم يتفرق الأقارب من حولها ــ على عادة أهل الريف ــ قبل مضى ثلاثة أيام ، وبعد ذلك استأنفت البكاء وحدها والجزع على انفراد ، وذاقت وحشة الدار ، فأحست كأنها تسكن فى صحراء .. وأن الفرق ليس كبيرا من هذا الجزء العامر من الدنيا ــ الذى هو دارها ــ ومن الجزء الخراب من المقابر التى سكنها زوجها . فقد أحست بعد قليل أن أتفه تفاهاته كان بالنسبة إليها شيئا عظيما .. حتى سعلته فى الليل ونحنحته التى تسمعها وهو فى طريقه إلى الباب عند عودته من الخارج .

و لم يمض على وفاة زوجها نصف عام حتى بدأ المرض يثقل على الزوجة ، فخافت أن تقضى أيامها الأخيرة فى عزلة ، أو أن يطول بها المرض فيقعدها مع أثقال الشيخوخة فلا تجد يدا تمتد إليها . خصوصا فى الليل بعد ما ينصرف كل زائر فلا تعود تسمع إلا صرير الجنادب فى الحقول القريبة منها أو ثغاء الماشية فى دار أحد الجيران .

وتحت وطأة هذه المخاوف ابتهلت إلى الله أن تموت ، وألا تطول أيامها

الأخيرة وجعلت تتودد أقرباءها بكل ما تستطيع ، لكن حدث أن أرملة أخيها أظهرت لها عطفا وحدبا لم يكن متوقعا ، فقد سهرت معها فى إحدى الليالى تدلك أقدامها ، وتحكى لها حكايات جميلة عن الذين طال بهم المرض ثم شفوا . وعن الحاجة عائشة التى عمرت مائة عام وعن أبيها الذى جاوز التسعين ، وبين هذا وذاك .. حدثتها عن حب « حسين » لها .. حسين ابن أخيها ، وأنه يقوم بالليل مبتهلا إلى الله أن يطيل له فى عمر عمته ..

وتستطرد أرملة أخيها قائلة لها :

ـــ إنه يحبك كما يحب أمه وأكثر .

وتقسم على ذلك وتسكت .. ثم تعود فتقسم .

وفى نفس الأسبوع حدث حادث آخر .

لم يكن مرضها قد خف بعد بل كان مؤذنا بعناء جديد . فسهرت إلى جوارها امرأة شابة هى زوجة ابن أختها . فأخذت تدلك أقدامها وتحكى لها حكايات جميلة .. أيضا .. عن الذين طالت أعمارهم حتى صاروا يبتهلون إلى الله عقب كل صلاة أن يقرب نهايتهم فقد سئموا الشيخوخة ، ثم تضحك لها قائلة :

ـــ لكنك يا خالتى فى منتصف الطريق .. ماذا تساوى ستون عاما فى أعمار الناس الذين يعيشون ؟

ثم تعود فتؤكد لها حب ابن أختها لها وأنه يقوم بالليل مبتهلا إلى الله أن يطيل له فى عمر خالته وتسمع زوجته دعاءه فى الظلام فتقول : آمين .

وأدركت الحاجة سكينة أن الموقف لا يخلو من شيء . فماذا يعنى هذا الحنان الطارئ ؟ .. وماذا يخفى وراءه إلا الطمع فى ما ستتركه الحاجة من متاع الحياة ؟

وقالت فى نفسها : أليس من الجائز أن يطول العمر حقيقة .. من الجائز أن أعيش حتى التسعين كما يقولون ، لقد نبهونى إلى شىء وجائز جدا أن أحتاج إليهم . على أن حنانهم هذا فرصة يجب أن تغتنم حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا .

ومنذ هبطت عليها هذه الفكرة وهى تحاول جاهدة أن تختلى بابن أخيها .

كان رجلا قويا فظا غليظ القلب من الذين لا يذبحون الديك إلا من أجل كنز كما يقول الريفيون فى أمثالهم . ولما كانت أمه لا تفتر عن التردد عليها وحمل الهدايا من الطعام والدواء ، فإن الحاجة سكينة قد أسرت إليها أنها تريد أن ترى ابن أخيها على انفراد غدا فى بكرة الصباح قبل أن يكون أحد عندها .

وخرجت أمه التى باتت على مقربة من فراش المريضة ، خرجت فى الصباح الباكر لترسل ابنها إلى عمته .. وحملت إليه هذه البشرى وابتسامة حيية تتراقص على شفتيها . وعند ذلك هرع « حسين » إليها يتعثر فى حفر الطريق ومنخفضاته ، ودخل حافيا إذ خلع نعله عند الباب وركع على فراشها المبسوط وانحنى حتى قبل يديها الاثنتين .

وحملقت المريضة فيه سائلة :

— رضوان ؟

— لا يا عمتى .. لست « رضوان ابن أختك » بل أنا حسين ابن أخيك .

فقالت بضعف شديد :

— كنت أريد فقط أن أتأكد .

فخفق قلبه من الفرحة وظلل على الدار سكون لم يسمعوا فيه شيئا ، كل هذا والحاجة سكينة لم تنطق بكلمة واحدة . حتى قال حسين لها :

— لقد طلبتنى يا عمتى . وأنا دائما تحت أمرك .

فردت وكأنها تتذكر شيئا نسيته :

— آه .. آه .. نعم .. نعم ..

وسكتت من جديد . ثم قالت له :

— قم واقفل هذا الباب وعد إلى .

فلما فعل وعاد إليها أخذت تسر إليه بحديث وتصف بتفصيل ودقة كأنها تخطط رسما لرحلة نائية .

وفى المساء التالى دخلت أم حسين دار الحاجة سكينة تحمل صينية عليها دجاج مسلوق وفاكهة ، وأشياء كثيرة من التى لم تذقها المريضة فى أوج صحتها . وهناك ألفت زوجة رضوان فنظرت كل من المرأتين إلى الأخرى نظرة تشوبها العداوة . ولم يلبث شعورهما القلبى أن ظهر فى ألفاظهما حين تبادلتا الحديث وتنافستا على حمل طشت الغسيل بعد أن توضأت الحاجة سكينة .

وعند عودة زوجة رضوان إلى دارها قصت على زوجها كل ما رأته ، فقرر الزوج الدخول فى مزاد التقرب إلى المريضة ، فما كان منه إلا أن عمل مفاجأة أعظم ، فقد أبصر أهل الحارة عصر يوم سيارة طبيب المركز وهى تقف على باب الحارة ويدخل الطبيب بهيبته وأبهته إلى دار الحاجة ويصف لها الدواء وينصرف .

ولم يفت الفلاحين أن يعلقوا على هذا النفاق . ولم يفت زوجة رضوان أن تقسم أيام الأسبوع قسمين لتقوم بنصيب فى خدمة الحاجة سكينة هى الأخرى . ولم يفت الحاجة سكينة أن تمشى فى الطريق إلى نهايته فقد أسرت إلى زوجة رضوان أنها تريد أن ترى ابن أختها على انفراد غدا بعد صلاة الفجر قبل أن يكون أحد عندها ..

وخرجت زوجته التى باتت ليلتها على مقربة من فراش المريضة لترسل

زوجها إلى خالته وحملت إليه هذه البشرى وابتسامة حيية تتراقص على شفتيها ، وعند ذلك هرع بدوره إليها يتعثر فى حفر الطريق ومنخفضاته ودخل عليها حافيا وانحنى على الفراش المبسوط على الأرض كما فعل « حسين » من قبل ثم أخذ يقبل يديها الاثنتين .

وحملقت فيه المريضة سائلة :

— حسين ؟

— لا يا خالتى ، لست حسين ابن أخيك ، بل أنا رضوان ابن أختك .

فقالت بضعف شديد :

— كنت أريد فقط أن أتأكد .

فخفق قلبه بفرحة من تلك التى خفق بها قلب ابن أخيها ؛ لأن ابن الأخت ليس وريثا شرعيا ، وهو يطمع بعملية التقرب هذه أن يفوز بوصية مما ستتركه .

وظلل على الدار سكون لم يسمعوا فيه شيئا والحاجة سكينة لم تنطق بكلمة واحدة حتى قال لها رضوان :

— لقد طلبتنى يا خالتى ، وأنا دائما تحت أمرك .

فردت وكأنها تتذكر شيئا نسيته :

— آه .. آه .. نعم .. نعم...

وسكتت من جديد ثم قالت له :

— قم واقفل هذا الباب وعد إلى .

فلما فعل وعاد إليها أخذت تسر إليه بحديث ، وتصف بتفصيل ودقة كأنها تخطط رسما لرحلة نائية .

وظل هذا الأمر حديث أهل القرية طوال ستة شهور . لم تشف فيها الحاجة

سكينة و لم تمت . كان كل شيء فيها يتأخر ويتراجع إلى الوراء إلا أكلتها . وحدث أن تذمر ابن أخيها حسين من الموقف فكف يده عنها قليلا فانتهزت زوجة رضوان ابن أختها هذه الفرصة وخلقت جفوة بين الحاجة وبين وريثها الشرعى . وحدث جفاء شديد بين الطامعين جميعا ، تناهى خبره إلى الحاجة فقالت بهدوء شديد :

ـــ هو شخص واحد الذى حدثته عما يجب أن يفعل حين أموت .. شخص واحد وهو يعرف نفسه .

وتطاير هذا الكلام حتى وصل إلى ابن أخيها من ناحية ؛ وإلى ابن أختها من ناحية أخرى ، فظن كل منهما أنه وحده هو المقصود بالكلام . وعاد الود من جديد فاتصل بين الحاجة وابن أخيها ، وزاد « مزاد » التقرب حدة وتنافسوا على تقديم الغذاء والدواء للمريضة . كل ذلك وأيام عمرها تمر ببطء سير المركب الشراعى على الماء الراكد فى اتجاه مضاد للريح .

حتى كانت ليلة لابد أن يلقاها كل إنسان ... .

واجتمع النسوة حول الحاجة فى لحظاتها الأخيرة فى حجرة علوية . وكان الوقت ليلا ، فدخل « حسين » ابن أخيها إلى الدار فى صمت وتسلل فى الباحة المظلمة حتى وصل إلى قاعة شتوية مصمتة الجدار لا كوة فيها ولا نافذة ، ودفع بابها برفق فانفتح . كان فى يده قدوم .. واتجه من فوره إلى أقصى الركن على اليسار .

و لم يكن معه مصباح لكنه عرف طريقه لأنه رآه فى النهار مائة مرة . ولما كان الظلام كثيفا فى المكان ، فقد كان يتحسس طريقه بيده . فراعه أن أمسك شيئا .. أمسك جسم إنسان ، فصرخ صرخة فزع مكتومة ، وسأله : قل من أنت وإلا حطمت رأسك بالقدوم . فجاءه صوت جافل

مرتعش جعله الليل غريبا :

ـــ أنا رضوان يا حسين .. اعقل .

ـــ ما الذى جاء بك هنا أيها الحيوان .. سأقتلك .

واشتبك معه فى صراع .

ولما كان حسين أضخم جسما وأقوى عضلا وأحق شرعا ، فإنه جثم عليه وكاد يزهق أنفاسه ، فقال رضوان بصوت كأنه صادر من تحت الأنقاض :

ـــ حسين .. اعقل .. أى شىء عرفنى لو لم تقل هى لى .. لا تفضحنا فإنها لم تمت .. والنسوة مجتمعة حولها .. ثق بأنها كذابة .. وإلا ما عملت هذا . دعنى وجرب .

وأدرك حسين أن ذلك جائز ، فظلا يحفران فى الركن تحت الحجر المرصوف فلم يجدا إلا خرابا .

وفى الوقت الذى نظر فيه كل من الرجلين إلى الآخر تحت نور صباح هزيل ارتفع فى الحجرة العلوية من الدار عويل النسوة مؤذنا بأن نفسا لاقت ربها فى هذه اللحظة ، فرفع الرجلان أيديهما إلى السماء ودعوا لها بالرحمة .

على أنه إذا كان أملهم جميعا قد خاب فى نقودها وذهبها فإنهم انتظروا ـــ خصوصا الورثة الشرعيين ـــ أن يئول إليهم العقار القليل والدار الكبيرة . لكنه حدث فى اليوم التالى أن فوجئوا بأن محاميا من المركز جاء إلى عمدة القرية وطلب ورثة الحاجة سكينة ثم أبلغهم بأنها أوصت بكل عقارها ومنقولاتها بعد وفاتها لصالح المسجد .

ولا يزال أهل الحارة يذكرون هذه الحادثة ، ويتندرون ويستشهدون بها إذا ما رأوا حنانا كاذبا يبذل قبل الوفاة ، كالدموع التى تذرف على ميت لم ينل عطف الباكين وهو على قيد الحياة .

رحلة إلى المدينة

لم تذق عيناها النوم ليلة البارحة ، كل شيء كان مضيئا يقظا مرتفع الصوت .. كانت تظن أن عجائب الدنيا قد انقضت بعد أن نزلت من القطار ، وعبرت محطة العاصمة .

لم يكن يخطر ببالها قبل ذلك أن هناك سقوفا من الزجاج تغطى مساحة كبيرة . إنها تعرف السقوف الخشبية فى القرية ، وكذلك التى صنعت من القش .. وحين ركبت الترام مع زوج أختها « ثريا » عجبت من تلاصق الرجال والنساء فيه ، وشغلتها الصفارة فى فم الكمسارى والفساتين التى تكشف عن السيقان ، والرءوس العارية والشعور المدهونة ، والعيون القوية أمامها وجنبها وهى تحدق فيها بغير حياء ..

كانت تظن أن العجائب قد انقضت ، لكنها لم تنقض بعد .. فعينها لم تذق النوم ليلة البارحة .. الناس لاينامون هنا بعد صلاة العشاء ، وزوج أختها يشغل فى المدينة مكانة أعظم من مكانته فى الريف .

فعلى الرغم من أنه لم يكن لابسا بدلة عسكرى البوليس يوم قابلها على القطار ، فإن كمسارى الترام انصرف و لم يأخذ نقودا حين نظرا إليه زوج أختها ، وهمس بكلمة لم تسمعها « زينب » وهو يحدق فيه بعينيه السوداوين .

وبعد أن وصلت إلى الحارة بدت لها البيوت أكثر ارتفاعا ، ومن بلكوناتها تتدلى ملاءات مغسولة بيضاء نظيفة .. والنساء يطللن من الشبابيك فى حرية

ودعة .

وعند باب الشقة قابلتها ثريا أختها وعلى وجهها أصباغ كثيرة ، والباب ليس مصمتا من الخشب .. شراعته من البلور الذى لا يمكن أن يستعمله الأغنياء فى القرية حتى أكوابا للشاى .. وعليها منديل أبيض « أويته » حمراء وردية .. ومن فتحة ثوبها تفوح رائحة الفل .

وحين سكنت زينب فى أحضان أختها ثانيتين أو ثلاث ثوان ، وملأت أنفها رائحة نعيم الجنة الذى ترفل فيه زوجة العسكرى ، أحست بنصف إغماء خلقه المنظر والعطر والدهشة ، والدوار اعتراها من صعود السلم الحلزونى المرتفع ، فودت أن تظل ساكنة على صدر أختها حتى يأخذها النوم .

ثم تذكرت بعد أن أفاقت وعبرت إلى الداخل على بلاط الصالة ذى المربعات الحمراء والبيضاء أن كل هذا الترف راجع إلى دعاء الأم ، فقد كانت أمها تدعو لأختها « بالعدل » وقد استجاب الله دعوتها ورزقها بما لم يكن فى الحسبان .. وها هى ذى أمها قد أخذت فى الدعاء لها هى بعد أن فرغت من أمر ثريا . كم تود لها أن تتزوج فى المدينة لتشرب الماء الصافى وتسكن فى النور ، ودولاب أختها يخزن يستوقف النظر .. ويدهش الفكر .. فيه بدلة زوجها الشتوية السوداء معلقة على شماعة تحتضن فساتينها الحمراء والزرقاء والخضراء فى تلاصق كأنه عشق .. ومعطفها الصوفى الأسود على ياقته شيء يشبه « الفروة » .. هذا هو العز .. نعيم الجنة ، والخبز لين يبتلع بسهولة ، هو دائما أجود من الذى يصنع للمناسبات الكبرى فى العزب .. فى الأفراح أو المآتم أو موالد الأولياء .

ولم تنم عيناها طول الليل .. غناء الراديو ينبعث من كل نافذة .. والدنيا

حر والنوافذ مفتوحة ، والحارة ضيقة ، وهى فى أعلى دور .. إذا نظرت من النافذة أحسست كأن حبلا لاتراه يشدها إلى تحت إلى الظلام .. وضجيج ثلة من الصبيان يجرون وهم يصيحون .. وفى النافذة المواجهة امرأة ترقد على السرير فى تحرر ، والشباك مفتوح والحجرة مضاءة .. ساقاها ظاهرتان ، وذراعاها حتى إبطيها ، والراديو جنب السرير وبنتها تقدم لها شرابا فى كوب ، وهى تغنى مع الراديو وترقص مع الموسيقى .. عجايب !

والحران .. يدخل تحت « الدش » وينشف جسمة بفوطة فيها ورد ، والعشاء سمك أو جبن أو حلاوة والغداء طبيخ .. نعيم الجنة !

إنها قد فرغت من جمع القطن واشترت بما ادخرته من نقود جلبابين اثنين ، أحدهما أسود خفيف ، والثانى ألوان ، ولبست الثانى تحت الأول ، ثم جاءت إلى القاهرة لتحضر ولادة أختها التى ستضع مولودها الأول بإذن الله .

* * *

وعلى العشاء جلس زوج أختها يحكى عما صادفه فى يومه فى زهو من يحس أنه مرموق وبين الذين يستمعون إليه من يحسده على عزه . وقدم للضيفة مزيدا من التين « المهيطل » وأطنب فى وصف النشال الذى أمسك به فى حزم ومهارة وقدمه اليوم لينال العقاب .. وغمز بعينه .. إنه ربما ينال مكافأة مالية ، رزقا للمولود .

أما رحلة الصباح ، فقد كانت زيارة السيدة زينب ، وركبت الأختان إلى الجيزة — لتستأنفا الرحلة من هناك مرة أخرى .. وخلف الحدائق بدت لزينب قبة ضريح جعلت تهمهم له بقراءة الفاتحة .. كانت مأخوذة مقدما بالروعة الكبرى التى تملأ نفوس البسطاء من القرويين ، حين يكونون مقدمين على « زيارة » .. وحدثتها أمها أنهم قديما كانوا يخلعون النعال

ويسعون حفاة على أقدامهم إلى الأعتاب الطاهرة وتحت ظل هذه الذكرى كانت زينب تقرأ فى تبتل ، وعيناها الريفيتان المكحولتان قد أثقلتا بالخشوع وتركتها أختها تفعل ، حتى إذا ما انفصلتا عن الناس ، ذكرتها أن القبة ليست لضريح أحد الأولياء ولكنها قبة الجامعة !

وأحست القروية أن يدا لكمتها فى صدرها . فقد تذكرت الجامعة ومن فيها حتى طول وجودها فى ضريح السيدة ، لأن تحت قبتها هذه يتلقى الدروس فتى تحبه .. ولما رفعت وجهها إلى أعلى ورأت السمو العظيم فى عقد البناء فوق الضريح خيل إليها أنه ينظر الآن مثلها هكذا ، إلى القبة التى تعلوه ، وابتهلت إلى الله — وهى تلمس المقصورة — أن ينجحه .. حسين .. « إنه عزيز على قلبى يا رب » .

وفى أثناء العودة إلى البيت بدت المناظر لعينيها أكثر ألفة وأشد واقعية . قلت روعة سحرها لأنها لم تعد « الصورة » وإنما انقلبت « إطارا » وأصبح حسين هو الصورة ، نقطه الارتكاز . ومحور الفكر والغاية الكبرى التى ينبغى أن تقع عليها عينها فى المدينة .. وبعد ذلك ترحل ، تلد أختها أولا تلد ، ذكرا أو أنثى ، جنينا واحدا أو جنينين فى بطن ، فهذا ليس موضع الأفكار .

وكانت الجامعة قريبة من مسكنهم .. لقد لاحظت أنها على امتداد الشارع حين تخرج من الحارات الكثيرة فى الحى الوطنى هناك على مرمى البصر ، ستجد الشارع — الرئيسى المشجر المؤدى إلى الجامعة . وفى المنطقة طلبة كثيرون يذهبون إلى هناك ، أشكالهم معروفة ، وتستطيع زينب بنظرة واحدة أن تعرف سحنة طلبة الجامعة .. إنهم أشباه حسين أو قريبو الشبة منه ، وكثيرا ما سمعت ضحكته فى ضحكة بعضهم ، وحدة جداله فى نقاش أغلبهم .

واستولى عليها هذا الخاطر فعزلها عن المسكن ومن فيه .. خاطر أنها تراه .

تلقى عليه نظرة دون أن يشعر وما أجملها لحظة .. تلك التى تلقاه فيها فى إجازة الصيف وهو يتمشى على الترعة الكبيرة فتبرز له من خلال الشجر وتقول له وهى ممسكة بيده بين كفيها والضحك ينبثق من عينيها وفمها وقسماتها المسمسمة :

— شفتك !

— فين ؟

— فى مصر !

— مش مصدق .

— .. كان ذلك ..

وتحكى له وتحكى فى اعتزاز من عمل عملا كان الناس كلهم يظنون أنه أعلى مستوى طاقته . تحكى له عن المنظر والموقف الذى لم تحققه حتى الآن .

وجاءها خاطر آخر ..

أليس من الجائز أن تلقاه هو مصادفة .. كان يحدثها فى الليالى التى كانا يلتقيان فيها هنا بحب وبراءة .. أنه كثيرا ما يجلس فى حدائق الأورمان .. وكانت تتمنى أن ترى هذه الحدائق قبل أن تموت .. وسألته ذات مرة عن ألوان الفواكه ، التى تنتجها هذه الحدائق فضحك ، وقال وهو يربت على خدها الذى ألهبه الخجل .

— إنها لا تثمر فاكهة ، بل .. أزهارا .. أزهارا مثل هذا الخد ..

وفرضت أنها لقيته ، وحتم أن يأخذها إلى البيت لترى مسكنه المنفرد الذى وصفه لها .. المكتب وعليه موقد الكحول .. وكنكة القهوة والفوطة على ظهر الكرسى الذى يجلس عليه .. لماذا ؟ هكذا وصف . والسرير الواطىء الذى لا يسع أحدا إلى جواره . أى أحد ؟! آه ..

* * *

وخرجت إلى البقال تشترى شيئا .. وعادت .

وخرجت إلى الجزار تشترى لحما .. وعادت .

وفى إحدى الأمسيات ذهبت فاشترت سمكا مقليا من الدكان الأكثر بعدا .. وعادت ..

وضحكت ثريا أختها فى مرح ، واهتز كرشها المشحون من فرط السرور :

ـــ لقد أصبحت مدنية يا زينب لن أخاف عليك أن تتوهى بعد اليوم ..

ومن فوق (سطوح) البيت بدت لها قبة الجامعة مرة أخرى . كانت الشمس اللينة فى هذه الضحوة تنصب عليها انصبابا يثير فيها الدهشة والحنين ..

إن حسين يجلس تحتها الآن .. تحت القبة ! خيل إليها ذلك .. كتابه فى يده وإلى جانبه فتاة .. حلوة ! ربما . وهو يرد على المدرس بطلاقة لسان بالطريقة التى يكلمها بها بين الحقول .. وأحيانا كتفه تلمس البنت إلى جواره .

وحدائق الأورمان تبدو أشجارها مرتفعة . إنها مليئة بالأزهار ، والفتيان والفتيات كلهم أحباب ، يهمس بعضهم لبعض بكلمات حلوة ، عند مدخل الأذن أو صفحة الوجه أو جانب العنق ..

وحسين ؟

وخيل إليها أنه يناديها .. إنه واقف عند الباب أو عند رصيف الجامعة ، أو عند البوابة الحديدية الضخمة ذات المصراعين التى تفتح على الجنينة .

ونزلت إلى أختها تحت .. وجدتها فى المطبخ تراقب حلة الكوارع ، فجددت زينب مرة أخرى من أختها .

ـــ هل أنت محتاجة إلى ؟ إن المنظر من فوق (السطوح) ، أحلى من

الجنة ..

— لا .. كما تريدين يا زينب !

* * *

و لم تتسلل إلى فوق ، بل تسللت إلى تحت ..

كان السلم ضيقا حلزونيا مظلما على مقربة من المدخل ، فتعثرت الفتاة مرتين وكادت تسقط ، ولما وصلت إلى الحارة تخيلت أن كل الناس يعرفون سرها ، لكنها جدت السير إلى الشارع الرئيسى .

ورأت خط الشجر على جانبى الطريق ، والناس يسرعون فى السير أكثر من العادة والبناء على مقربة منها ..

وفى سرعة مجنونة لفتت أنظار كل الناس ، مشت فى الشارع الرئيسى ، وأخذت الأسوار تقترب رويدا رويدا.كانت كأنها المستلقى على ظهره يحلم بالنوم والحلم اللذيذ ، مع أن النوم قد يأتى ويتخلف الحلم . لكن قلبها المحب فرض وجود النوم والأحلام فى وقت واحد .

وعندما وصلت إلى الزاوية التى تتقابل عندها المبانى والحدائق هذه يمينا وهذه شمالا .. وقفت كأنها فقدت شيئا .

ورأت طلبة يمرون ، لكن بكثرة تخجل وتحير ، وهمت أن تسأل أحدهم لكنها خافت .. يقولون عليها ماذا ؟ .. وأختها الآن ربما أنها تنادى عليها .. ثم أليس من الجائز أن يمر زوج أختها فيراها ؟ .. لا ضرر ، ستزعم أنها ضلت الطريق وهى فى سبيلها إلى المكوجى .

ودارت حول الجنينة ، وملأت أنفها رائحة الأزهار ، وبلل كورنيش ثوبها خرطوم يرش فى الداخل على مقربة من السور النباتى . وظلت تدور حتى وجدت الباب فدخلت منه وغلبت دهشتها على خوفها ، فنسيت كل

شىء ..

لم تعد تذكر أحدا إلا أن أمام عينيها مكانا حدثها حبيبها عنه .

ونحن يسعدنا أن نرى شيئا يحدثنا عنه أحبابنا بحب ، حتى ولو كنا وحدنا .. بدونهم .

الكوبرى المقوس .. وخمائل الغاب .. والبحيرات الراكدة يغطى وجهها البشنين والصفصاف « شعر البنت » يدلى ضفائره فى الماء .

كل هذا رأته القروية وهى تمشى تفتش عن إنسان .

وأخيرا سمعت صوتا ..

اتهمت نفسها ، فقد تحقق أوهامنا رغباتنا على صورة ما . لكنها حين توارت خلف الشجرة الكبيرة ، وأنصتت بقلبها وأذنها ، عرفت صوت حسين .. وخفق قلبها حتى كادت تسقط على الحشيش ، وكتمت أنفاسها فى جذع الشجرة ، وتركت عينها تراه وهو جالس .. مع فتاة معقوصة الشعر ، لثوبها فتحتان كبيرتان ، واحدة منهما من الأمام بالضرورة ، والأخرى — العجيبة — من الخلف ! قناة ظهرها تكاد تظهر . وفى يد كل منهما كتاب .. يتكلمان ويقرآن ويضحكان ، ويميل بعضهما على بعض بطريقة تكاد تخلط نفس كل منهما بنفس الآخر !

وتأوهت فى صمت ، كانت تود أن تراه ، ولكن .. على هذه الصورة ؟ لا .. على أنها لم تكن تطمع فيه ، وهذا لا يتنافى بتاتا مع حرصنا على ما نحبه ومن نحبه ..

وخيل إليها أنه سيتحرك وسيراها .. ماذا سيقول عنها للتى معه .. يا ساتر إنها لا تطيق .

وخرجت تجر أذيال ثوبها على الحشيش وقطعت المسافة إلى البيت وكأنها

فى حلم مزعج ؟ حلم لذيذ ؟ .. بل حلم مختلط فيه قبلات ولكمات ومر وشربات.وأفاقت وهى عند باب الحارة ، وصعدت سلم بيتهم تلهث حتى وصلت إلى السطح ومن هنا نزلت إلى الشقة .

لم تجد أختها فى المطبخ .. وكانت حلة الكوارع لا تزال على النار .. تغلى وحدها وثريا فى الفراش تتلوى كأنها مسمومة :

ـــ مالك يا ثريا ؟ هل جاء الوقت ؟

ـــ مالى ؟ مالى إيه ؟ نبحت صوتى فى النداء عليك .. آه لم أقدر على أن أصعد لك السلم وأنت فوق .. آه .. آه .. آه ..

واسترسلت فى آهاتها من تحاسيس الولادة فى الوقت الذى كانت فيه زينب تتأوه فى صمت ، وتفكر فى الذكرى التى ستعود بها من المدينة .. والحلة تغلى على النار .

الحيلة الكبرى

التجربة فى الحب أولى بألا تنسى .

لقد أعطتنى من اللذة أضعاف ما أعطتنى التجربة الكاملة فيه . فالجهل والتخبط فى طرقات الهوى أيام الشباب الباكر أشبه بثأثأة الأطفال أول ما يتكلمون . تقع فى أسماع الكبار منا وقعا موسيقيا عذبا يثير الضحك والسخرية واللذة .. والذكرى أيضا ..

وكأننى أعيش حتى اليوم فى حارة سمسم . الضيقة الملفوفة المعووجة ذات اليمين وذات الشمال ، فى شقة من أربع غرف فى آخر دور ، ومع أبى الموظف وإخوتى الصغار ، وأمى الشابة البنهاوية ، التى تشبه أختها تمام الشبه حتى كأنهما توأمتان .

وكان أبى وزوج خالتى متحابين كأنهما أخوان . وكثيرا ما كانت خالتى تجيء لزيارتنا فيهتز بقدومها البيت . وكنت فى ذلك الحين ابن ست سنوات ، أفرح بالهدايا التى تحملها إلينا الخالة وبمجيء بنتها (نعيمة) معها .

كنا نصعد فوق (السطوح) فنلعب ألعابا كثيرة فى وحدة واتفاق وتقارب سن . نصنع قطارات من علب السردين وطيارات من الورق المشمع ونهاجم العصافير على حبل الغسيل .. ونجرى ونقع .. ونتماسك وننهض .. ونتخاصم ونبكى .. ونتصافح ويقبل بعضنا بعضا ، دون أن يشعر بنا أحد .

وكنت أجلس فأفحص ملامح خالتى — كثيرا — فى صمت طويل خبيث كأنه صمت شيطان ، فأجد تشابها يكاد يكون تطابقا بين وجهها ووجه أمى

إلا فى منطقة واحدة هى العينان فقط .

كانت عينا خالتى مصابتين غير سليمتين ، إذا رآها من لا يعرفها فإنه يسألها لماذا تبكين ؟ .. على الرغم من سوادهما واتساعهما كانتا كثيرتى الرشح كأنهما أنف مزكوم ، غارقةأهدابهما فى الدمع بشكل يثير الشفقة .

وقد سمعتها تشكو لأمى أن العلاج لم يعطها نتيجة ، فالمرض يجىء ويروح ويظهر ويختفى كأنه مس عفريت .. ثم سمعتهما تتحدثان عن عملية فى عينيها وأبدت أمى مخاوف من هذه المغامرة كانت ضعف مخاوف خالتى منها .

وأخذت العلاقات تفتر شيئا فشيئا — بمرور الأيام — بين الأختين والعديلين شأن كل الدنيا .. وكان كل منهما يعتذر للآخر بمشاغل الأولاد ومشاكل العيش والقوة العجيبة التى تعلق كل إنسان من عرقوبه كما تعلق الذبيحة عند الجزار . لكن ذلك لا يعنى أن العلاقة انقطعت بين الأختين تماما .

ثم بلغت من العمر ستة عشر عاما . ومضى كل أفراد الأسرتين — بالتالى — فى نفس الطريق . وأخص بالذكر (نعيمة) بنت خالتى التى بلغت خمسة عشر ربيعا على التقريب .. ثم .. عينى خالتى .. فقد كبر بهما المرض واستشرت فيهما العلة حتى خضعت أخيرا للرأى الذى يقول بإجراء عملية فى عينيها .

وفى عصر يوم من الأيام دخل والدى من العمل فسارعت أمى إلى استقباله فى الصالة فناولها العصا والطربوش فى صمت ثم انحرف إلى حوض الغسيل ليغسل يديه كما هى عادته . ثم سمعناه يعلن فى لهجة غير واضحة المعالم وجوب تخصيص غرفة من الغرف الأربع للضيوف . فسألته أمى فى لهفة :

— لمن ؟

ـــ لأم نعيمة .

ـــ زيارة عادية ؟

فقال وهو يرفع كوبا من الماء البارد إلى شفتيه الظامئتين :

ـــ بل عملية فى العينين ..

فأطرقت أمي إلى حجرها كأنما ضغط رأسها من الخلف وهى تقول :

ـــ يا ساتر يا رب ..

أما أنا فقد كان قلبي يخفق بعنف ، إذ تذكرت أنني لم أر نعيمة منذ أربع سنوات ، وهممت أن أسأل أبى عمن سيكون فى رفقتها لكنني عدلت . وجعلت أتصورها فى آخر صورة رأيتها فيها ثم حاولت أن أكبر كل شيء ، حتى خلقت منها فتاة رائعة .

لكن .. هل ستكون مع خالتى ؟ ..

وبعد يومين اثنين وقفت عربة حنطور على باب البيت ونزل منها ـــ بين حفنة من أولاد الحارة ـــ رجل وامرأتان ، خالتى وزوجها وبنتهما نعيمة .

وكان السر فى حضورها هو أن تقوم بخدمة أمها فى الأيام التى يتحتم أن تقيمها فى القاهرة بعد إجراء العملية .

ورأيت نعيمة فى سن الخامسة عشرة ، فكانت أروع مما رسمت لنفسى .

وتخيلت وأنا أضع كفى فى كفها اللينة بعد رجوعها إلينا ، أننا سنعيد الكرّة فنلعب على (السطوح) ألعابا أخرى هى التطور الطبيعى لقطارات العلب وطيارات الورق .. لكن هاتفا غامضا هتف فى نفسى قائلا : هذا حلم .

ولم يكن قلبي قد خفق من قبل خفقة واضحة بحب أحد من الجنس الآخر . وكما يكون القرب مدعاة للحب يكون البعد مدعاة للحب ، ولما قربت نعيمة منى هذه الأسابيع أحسست فورا أننى أحبها .

قلت فى نفسى : هذا هو نصف المشكلة . لقد انحل .. يعنى أننا عرفنا أنى أحب نعيمة .. بقى النصف الآخر ويجب أن يحل : هل نعيمة تحبنى ؟

وعلى باب هذا اللغز تعثرت حيلى وتجاربى ، وهممت فى بعض الأحيان التى دوختنى فيها الحيرة أن أستنجد بأمى لتمد إلى يدها ، كأم ، أو كامرأة ، لكننى ضحكت من نفسى .

* * *

وفى عصر يوم من الأيام كانوا فى المستشفى الخصوصى الذى ترقد فيه خالتى بعد إجراء العملية . ومررت بهم بعد خروجى من بيت أحد الأصدقاء . وحين دخلت الغرفة وجدت أبى وأمى وإخوتى يجلسون حول السرير . ولم يكن بينهم زوج خالتى ولا بنته نعيمة . أما هو فكان قد سافر وأما هى ، فأين هى ؟ وما دامت لم تسافر فإنه يجب أن تكون فى البيت ، وحدها ؟ إنهم هنا جميعا ، إذن فهى وحدها . لابد أن عملا من الأعمال المنزلية استوجب بقاءها هناك .

وبلعت ريقى وقلت : يجب أن أذهب . ونظرت فى عيون الأسرة من حولى فظننت أنهم قرأوا خواطرى . وارتجفت مفاصلى وأنا واقف جنب الشباك . وألقيت نظرة طويلة على حديقة المستشفى قبل أن أترك مكانى فى صمت وهم مشغولون فى الحديث ، وخيل إلى وأنا خارج أن عيونهم تخرق ظهرى ، فلما وصلت إلى الشارع جريت نحو البيت .

وكان يبدو علىّ أننى خائف كأننى هارب من يد الشرطة ، وحملها هذا على أن تحملق فى وجهى بعد أن فتحت الباب وتقول لى :

— مالك ؟

قلت وأنا أجاهد فى إخفاء اضطرابى وكأننى أستفهم :

— مالى ؟

ووقفنا على بعد خطوات من الداخل ، ظهرى إلى الباب ووجهها إلىّ ويداها ممدودتان إلى الأمام بشكل حذر لأن كفيها كانتا مغموستين فى عصير الطماطم الذى تجهزه فى المطبخ ، وعليها ثوب صيفى يكشف عن ذراعيها حتى كتفيها المستديرتين . أما الشيء الوحيد الذى تكلمت به بعد ذلك فهو عيناها الفاترتان المستهزئتان المشحونتان بالدلال والقوة . قالت لى بهما قول من يتردد فى العطاء :

— ماذا تريد ؟

وانسحبت إلى المطبخ فى خطى قصيرة وبطريقة غير قلقة ، وانسحبت أنا إلى إحدى الغرف حيث جلست على كرسى ، ثم نظرت فى مرآة ، ثم أطللت من نافذة ، ثم فتحت صوانا ، ثم عدلت مفرشا على سرير .. أعمال لا تعدو أن تكون (لخبطة) فى (لخبطة) وحيرة وارتباكا وضلال طريق ..

ولما سألت نفسى : إذن لماذا جئت هنا ؟ كان الجواب أننى اندفعت ثانية اندفاعا ذاتيا كانطلاق البالون إلى المطبخ . وكان قميصى مفتوحا جدا من الأمام كأننى خارج من معركة ووجهى شديد الشحوب وفمى جافا وكل شيء فىّ كأنما عرقلته (فرملة) . ولكنها لم تسمع وقع أقدامى ، لأن ضجيج وابور الجاز كان عاليا ، فلما رأتنى ألقت إلىّ بنظرة جانبية لم تخل من الحذر ، وانكبت بإصرار تخرط فى وعاء دون أن ترفع إلىّ طرفا .

وكان كل شيء من حولى يطن ويملأ أذنى بالأزيز .. الوابور وقلبى والحنفية التى نسيتها مفتوحة ينسكب الماء منها فى الحوض المسدود .. والدنيا كلها ، وأخيرا رأيت أن الموقف غير مناسب حتى الانسحاب لا يعتبر لباقة ولا أدبا . فناديتها :

— نعيمة .

فرأيتها تحرك شفتيها و لم أسمع ردها . وكانت لا تزال تشتغل ، فقلت :

— هل تذكرين ؟

فهزت رأسها مستفهمة فانسابت خصلتان من شعرها الحالك حتى خيل إلىّ أن أطرافهما لمست قلبى ، ثم أكملت سؤالى :

— أيام زمان .. أيام لعبنا بعلب السردين وطيارات الورق و ..

وتوقفت عن الكلام فجأة وغمر العرق جسمى حتى سال من ظهرى من القناة المتوسطة التى تمتد فيه طولا . وصممت أن أجر نفسى وأخرج ، لكننى تخاذلت فاستندت بيدى على الجدار . وظللت كذلك حتى انجلت نعيمة .

كانت نعيمة غارقة فى الضحك من الأمر دون أن تنظر إلىّ . ضحكت حتى شرقت بريقها فاهتز كل جسمها حتى خدشتها السكين ودمعت عيناها من البصل ومن الضحك فأوحت إلى بأننى « خيبة » وأننى ضللت الطريق . ولما سكت انفعالها فلم يبق إلا اللهثات والشهقات سألتها فى انهزام :

— ليه كده ؟

فأجابت فى انتصار :

— إنهم جميعا هناك .. ألم تذهب إلى المستشفى ؟ ..

وسمعت آخر عبارتها تلك وأنا عند باب المطبخ متلمسا طريقى إلى الخارج . وكنت وأنا أعبر الحارة مملوءا نقمة على الدنيا حتى خيل إلىّ أنه يجب أن ألطم فتاة لا أعرفها قابلتنى يومئذ سائرة تتلوى ..

وعلى باب اللغز — مرة أخرى — تعثرت حيلى وتجاربى ..

لم أكن أدرك فى هذه الفترة من عمرى أن الحاضر قد لا يكون امتدادا للماضى بدليل أن جارنا الشيخ على عمران يلقى مطلقته فى الطريق وكأنها

امرأة لم يقفل عليها بابه ذات مساء .. ولم يكن موقفي مع نعيمة في المطبخ يتطلب أكثر من أن أفعل هذا على الترتيب .

« نعيمة .. أحبك .. ثم تربيت على الكتف أو الخد أو الشعر واحتضان وقبلة طويلة .. وأدع القضية بعد ذلك تدافع عن نفسها بنفسها .

لو فعلت هذا ما ضحكت نعيمة . فقد كانت في سن لا يجوز فيها أن أذكرها بعلب السردين وطيارات الورق في أول الحديث .. لكنها .. « خيبة » .

ولم أستطع أن أهاجمها بعد ذلك بفلول شجاعتي المغلوبة . وبعد أن عادت خالتي من المستشفى ورقدت عندنا في البيت أسبوعين كانت هناك أفكار تراودني .

صممت على أن أتحين فرصة ما فأكلمها بصراحة . إننا أبناء خالة وأنا أحبها فلماذا تسخر مني .. قطعا هي لا تخافني .. ليتها كانت تخافني فهذا خير من السخرية ..

وتوصلت إلى حيلة جميلة ، أقصد أن أقول : إنني رأيتها في ذلك العهد جميلة ومنتجة وموصلة إلى المطلوب .

صممت على أن أراقبها إذا صعدت إلى السطح ، ثم أصعد خلفها ، ثم أذهب إليها . وعند قدميها تماما .. أرتمي .. متصنعا الإغماء ، وعندما يفيق « الخيبة » فيجد نفسه بين ذراعيها ، تتأكد نعيمة القاسية أنني لست « خيبة » ..

وهممت أن أنفذ المشروع بعد مراقبة دقيقة . ولما صعدت نعيمة إلى السطح وبدأت أصعد إليها أحسست أن إغماء حقيقيا لا صناعيا سيصيبني لكن ليس عند قدميها تماما كما رسمت الخطة ، بل في منتصف السلم بين

(السطوح) وباب الشقة ..

* * *

وفجأة أحسست أن الوقت فات .. إنهم مسافرون غدا وأنا لم أفعل ما يعتبر خطوة إلى الأمام وستفارقني نعيمة دون أن تتأكد أنني أحبها وأعلم أنا مكنون صدرها بالنسبة إليّ .. حقيقة إنني (خيبة) ..

و لم أنم طول الليل . وكان طيفها يؤرقني ويدق رأسي بمطرقة حتى كدت أجن . واشتعلت نار هذه السن في قلبي القليل الحيلة فتخبطت في أعماق ..

و لم يكن أمامي إلا طريق واحد هو أن أكتب إليها رسالة وأوصلها إليها بأى شكل من الأشكال . وسهرت أكتب وأمزق .. وأكتب وأمزق .. حتى حصلت على خطاب يرضيني .

وصممت على أن أدسه في يدها أو جيب فستانها في آخر لحظة لتقرأه وهي بعيدة عني وتعلق عليه بما تشاء فإنه لا يعنيني .

لكنني عدت ففرضت أنها رفضته فتركته يسقط على الأرض . وكيف تكون حالي إذن وأنا أركع لألتقطه من عند قدميها قبل أن يراه أحد ؟ ..

... صعب .

كان التهيؤ للرحيل قائما على قدم وساق بحركة غير منتظمة تسود أنحاء الشقة . وكنت أنظر في عيني نعيمة كلما التقينا فلا أرى في سوادهما إلا سواد الغموض ونظرة دلال لا تخلو من اللين وإن غلبت عليها القوة . والرسالة في أحد جيوبي ثقيلة كأنها قنطار ، حتى ألقيت نظرة على الحجرة التي كانوا فيها ومتاعهم مجهز محزوم و لم يكن فيها أحد .. انتهزت هذه الفرصة ودخلت كأنما لأسرق شيئا ورأيت حقيبة يد صغيرة عرفت أنها لنعيمة . حقيبة صيفية بيضاء لطيفة بإطار معدني مذهب .. وحاولت فتحها حتى نجحت ووضعت فيها

الرسالة ثم أقفلتها وخرجت ألهث كأنها كانت (بوابة المتولى) . وتركت البيت وذهبت — كما أمرت — لأحضر لهم عربة حنطور .

ونزلوا وسلمت عليهم وكان أبى بصحبتهم للمحطة . وألقيت على نعيمة نظرة . وعلى حقيبة يدها نظرة . ودرجت العربة بهم وعينى محملقة وقلبى يدق ..

وظللت فى القاهرة أنتظر .. ربما كتبت إلى بعنوان المدرسة كما قلت لها فى الرسالة ، ولعلها حين تبعد عنى يشتد عطفها أو حبها ، وإن كان البعد يوجب النسيان فى بعض الأحيان كذلك . وابتهلت إلى الله .

وبقيت أنتظر .. ولا فائدة .

ثم يئست .. ثم نسيت ..

ولما التقيت بها فى ظرف من الظروف فى (بنها) رأيتها أكثر رزانة وبعدا ، فانطويت وآثرت السلامة . لكن شيئا فى قرارة نفسى كان يذكرنى بها ويعدنى بأن أتزوجها .. وكنت أصدقه ولا أشك فيه

حتى جاء أوان الزواج بمرور الزمن ..

قلت لأمى بعد أن أصبحت أهلا لأن أعلن رغباتى .

— سأتزوج نعيمة .

فقالت من خلال ضحكتها :

— عندى خبر .

— يعنى إيه ؟

— يعنى أنك تحبها ..

— من قال لك ؟

— أنت .

ـــ أنا ؟

فاستغرقت فى الضحك :

ـــ مش الجواب كان بخطك ؟

ست سنوات مرت على الحادث لكننى تذكرت كل شىء .. وكدت أشعر بنفس الخيبة التى ركبتنى فى المطبخ وأحس بأنفاس نعيمة وحركاتها .

وأفقت على قول أمى :

ـــ لقد اتفقت أنا وخالتك على زواجكما بعد أن عرفنا الحكاية .

ـــ بقى لى أن أعرف حكاية الجواب .

ـــ كان فى حقيبة يد خالتك ، وطبعا كنت تقصد أن تضعه فى حقيبة نعيمة .

فاستغرقت فى الضحك وأخذت أتذكر ..

كانت حقيبة خالتى بيضاء وحقيبة نعيمة بيضاء كذلك ، ولعل واحدة منهما كانت أصغر من الأخرى ، لكن .. هل كنت فى حالة أستطيع أن أميز فيها الفرق بين حجم حقيبة وحقيبة ؟

كنت يومئذ أنظر فى الضباب ولا أستطيع أن أدرك فيه الفرق حتى بين هرم « خوفو » وهرم « خفرع » ..

وبعد أن تزوجنا سهرنا ليالى نضحك من هذه الذكريات .

المخدوعة

فى الوقت الذى كنت آمل فيه أن أرى « سميرة » مع افتتاح الدراسة ، كان كل شىء فى حياتنا على وشك أن يتغير .. وكنت مقيما فى القاهرة طوال الصيف . ولم أبرحها مطلقا ، فقد كنت فى السنة النهائية فى كلية الطب . وكنت أنفق من صحتى القوية ودخلى الضعيف غير مبال إلا بأن أنتصر وأن أنتهى وأتخرج .

وكانت روائح الخريف تملأ الجو وروائح العودة تملأ قلبى وذكريات حديثة العهد غضة كالورد فى الموسم تسهر معى وتنام معى وتستيقظ وقت الصباح .

وقد ودعتها أول الصيف بعد انتهاء الامتحان وبدء العطلة ، وعمر صداقتنا لا يزيد على شهرين اثنين .

عرفتها فى المستشفى الجامعى وهى تزور مريضة من المريضات ، ريفية جافة غير صغيرة ، عليها آثار من جدب المعيشة ، وقد كان واضحا من معاملة « سميرة » لهذه المريضة أنها تمت إليها بصلة قربى .

كان وجه الفتاة مترددا لطيفا عليه طابع من طيبة القلب ، وعلى فمها ابتسامة شبه دائمة يشرق بها وجهها كأنها نافذة جميلة يدخل منها النور .

وفى اللحظة التى كنت فيها قريبا من السرير كانت المريضة تشكو إليها أنها تلقى شيئا من الإهمال وأنها شديدة الحياء فلا تستطيع أن تصرخ بما تريد .

ورفعت الفتاة صوتها تردد ما تقوله القروية كأنها تريد أن تنبه إلى ،

فتدخلت فى الموضوع . ومنذ ذلك الوقت لقيت المريضة عنايتى الشخصية وعناية الأطباء الذين أعرفهم . وكثر تردد « سميرة » على المستشفى . وكان كل يوم يمر يضع لبنة فى بناء العلاقة بين قلبين ظهر أنهما فى غاية الظمأ إلى الانتهال من نبع الشباب .

وعرفت أنها طالبة بإحدى المدارس الثانوية وأن أبويها من مدينة غير القاهرة وأنها تسكن مع عمتها وأولاد عمتها فى مسكن واحد . وأنها تحت رقابة معتدلة وحنان لا بأس به . وأنها تسافر فى المواسم والأعياد تقضى إجازة الصيف كلها بعيدا عن العاصمة .

كنا نسير فى الشارع وقتئذ وهى تفضى إلى بهذه المعلومات ، متباعدين تماما .

وكان الوقت عصرا والفصل ربيعا ونحن بحذاء النيل . وفى حديثها لهجة طرية وفى قوامها ميوعة وفى عينيها نور وفتور وانكسار . وكل شىء فيها مطمع ضعيف قد انهار أمام موجة الحب الأولى كما ينهار سد من الرمل .

ومددت يدى فتأبطت ذراعها فلم تقاوم كثيرا كأنها أحست بدفء جديد . وسرنا نتحدث وكانت هناك فرصة بطبيعة الحال لأن يصطدم بعضنا ببعض ونحن سائران .

ولما ودعتها عند محطة الترام ذكرتها بأن مريضتها ستخرج قريبا ، وأن فرصة كبرى من فرص اللقاء ستفلت من أيدينا ، واقترحت عليها أن تأتى فى وقت مبكر لتراها . وفاضت عيناى بوعد وردت عيناها بالموافقة . ولم أنم طول هذه الليلة .. وسهرت جامدا جمود المصباح المتدلى من السقف فى مستوى جبينى .. والنور مراق على الكتاب . وأعقاب السجاير مكدسة فى طبق فنجان . وأعواد الكبريت المنطفئة أنبش بها أسنانى فى حركة غير واعية

كلها شرود . وجمجمة على ظهر دولاب تحملق بحفرتين كانتا عينين فأنظر إلى الجهة الأخرى .. كل هذا لأتدبر ما عسى أن يقع فى المستقبل ، فقد شعرت نحوها بميل شديد .

والتقينا مرة أخرى وسرنا جنبا إلى جنب وسرقنا الحديث فألغى الزمن والمسافة ، حتى انتبهنا فجأة فإذا بنا فى مكان قريب من مسكنى . وعرضت عليها أن تذهب معى لأريها حجرة طالب فى كلية الطب ... « إنها حجرة جميلة قد يروقك منظرها يا سميرة وقد يكون لك مثلها فى مستقبل أيامك .

فضحكت خائفة وفتحت عينيها كمن رأى خطرا قريبا لكننى هززت كتفى فى غير مبالاة شأن من يطلب أمرا لا يخفى مأربا ضخما ثم اقترحت عليها أن أشيعها لأقرب محطة فتركب منها .

وفى الطريق إلى المحطة عاودت اقتراحى فسكنت وهى شاحبة فوضحت لها أن المسألة عادية ، وغاية فى البساطة ، وأنه من الجائز فى يوم ما أن تحتاج إلى معرفة عنوان مسكنى فلا تضل .

وسارت إلى جوارى صامتة لا تجرؤ على الكلام ولا تنظر إلى . نظراتها عند مواقع أقدامها . وحذاؤها الواطىء لا يحدث صوتا ذا بال .

وخلقت بذلك سكونا طارئا عجيبا نفذ إلى نفسى فهممت أن أقول لها : « ارجعى .. لا داعى للذهاب ما دامت هذه حالك » لكننى خجلت » .

وحين صعدنا إلى الحجرة كان السكون مخيما على السطح ، وفى باب الحجرة الثانية المجاورة البعيدة قفل غليظ . والكون بديع والمساكن واطئة تحت أبصارنا كأننا فى طيارة . فلم تملك سميرة إلا أن هتفت : « الله .. »

وكنت واثقا من أننى قادر على أن أحميها من نفسى لأن طراوتها وطيبتها وسذاجتها واستسلامها الواثق جعل الإنسانية فى شبابى تغلب على أى اعتبار ،

واقترحت عليها أن تحيى نفسها بنفسها وأن تدخلنى ضمن التحية فتصنع لنا فنجانين من الشاى .

وفى الفترة التى كنا فيها بانتظار غليان الماء على موقد الكحول كنت أعرض عليها أدوات طالب الطب . عظام وجماجم كانت فى وقت من الأوقات وسائل إلهية لحياة سعيدة أو شقية ، ثم أصبحت اليوم ضمن أدوات الدراسة كالبرجل والمسطرة والأستيكة فى أيدى صغار .

فمطت شفتها الجميلة وشحب لونها شيئا ما وغسلت يدها جيدا بالصابون وسألتنى عن الكولونيا . ثم جلسنا نشرب الشاى .

كنا لا نزال خائفين ، كلانا خائف من الآخر . وتكلمنا فى أشياء تافهة حاولنا بإثارتها ألا نترك للصمت سبيلا إلى مجلسنا . ثم سألتها سؤالا عارضا كان له أثر السحر هو عدد أولاد عمتها .

قالت :

— ثلاثة .

— وكم سن أكبرهم ؟

— عشرون عاما .

ثم نظرت ترتقب سؤالا آخر وفى عينيها لؤم عجيب . فسألت وروائح الاهتمام تلون كلامى :

— وما اسم أكبرهم ؟

— « زينب » .

واستغرقت فى الضحك حتى شرقت بالشاى ، وعادت فأفهمتنى أن بيت عمتها ملىء بالبنات وأنه لا داعى للقلق .

ومن خلال الشباك الغربى سمعت المضيفة صوت فتاة كانت تنشر غسيلا

فعلقت بسرعة على موقفها وعلقت بسرعة أنا أيضا فأوحيت إليها أننى أعرفها وأنها جارة قديمة وأن الكلفة مرفوعة بيننا ، فإذا بسميرة تقترح على أن أكتفى بشباك واحد ، قائلة :

— فى حجرتك شباكان أحدهما غربى والآخر شمالى . ألا يكفى شباك واحد ؟

— إننى محتاج إلى الشمس والهواء .

فأشارت إلى الشمال بأجفانها :

— تستطيع هذه النافذة أن تملأ الدنيا عليك هواء وشمسا .. نافذة واحدة تكفى لو كنت تقنع ..

ومشت النشوة فى أوصالنا . وقامت فرفعت الفناجين ثم خرجت فغسلت يديها ووقفت تدعكهما بالفوطة . كانت فى وسط الحجرة تماما وكأنها على وشك أن تفعل شيئا ، وكنت أنا على الكرسى فى مكانى لا أدرى ولا أرسم خطة . وسألتنى سؤالا مبهما :

— هل عندك مسامير ؟

— نعم .

— وأين هى ؟

— فى درج المنضدة التى تحمل أدوات الطبخ .

وأقبلت على النافذة التى تطل على الفتاة فأقفلتها وهمت أن تدق فى إطاره الداخلى مسمسارا حتى لا أستطيع فتحه ، فسرت نحوها وأمسكت بذراعيها فإذا بهما فى طراوة الخروع .. وسقطت المسامير ثم سقطت « الصامولة » الصغيرة التى كانت ستستخدمها فى الدق . ثم سقطت على شفتيها قبلة طويلة المدى ، عميقة المغزى قلت لها على أثرها :

— هل ترين أنه قد بقى ما يدعو إلى تسمير هذا الشباك ؟

فأومأت بالإيجاب . وتركتها تفعل والضحك يقلقل صدرها . ثم قالت وهي خارجة :

— إذا استطعت أن تنزع هذين المسمارين من خشب الشباك كنت قادرا على نسياني . والعكس بالعكس .

فأجبتها :

— أنت مستبدة .

لكنني ذكرت فورا أن الحب استبداد وقسوة فى بعض الأحيان .. واستعباد وشراء رقبة . وأشياء أخرى ..

* * *

ولم تدخل حجرتي بعد ذلك قط ، سافرت فى إجازة الصيف . وكتبت لى رسالة واحدة وزردت عليها على شباك البريد . ثم انقطعت الأخبار .

وكنت أنظر إلى المسمارين فى إطار النافذة من أسفل وقد ثنيا إلى فوق ليمنعا المصراع أن يفتح . فأبتسم . ولم أخلعهما بل دورتهما فى مكانهما حتى صارا لينين يدوران كما تدور « العصفورة » التى تقفل بها المصاريع . أديرهما إلى تحت فأفتح . ثم أقفل وأديرهما إلى فوق فيرجعان كما كانا .. وسأقسم لها — وأنا أبتسم — يوم ألقاها أنني لم أخلعهما وأنهما هما نفس المسمارين اللذين دقتهما بيدها الحلوة .

لكنها لم تعد .

وهذه هى روائح الخريف تملأ الجو . وروائح العودة تملأ قلبى . وذكريات حديثة العهد غضة كالورد فى الموسم تسهر معى وتنام معى وتستيقظ معى وقت الصباح .. والمدارس قد فتحت . وسميرة غائبة عن

مدرستها .

ورابطت عند بيت عمتها فلم أرها . ورابطت عند باب مدرستها فلم أرها . لكنني عدت ذات مساء فإذا بالبواب يمد إلى يده برسالة ثقيلة فى ظرف متين ملصق جيدا كأن صاحبه يخشى أن يعبث به أحد .

ونظرت إلى المسمارين فى الخشب قبل أن أفض الرسالة . ومن خلالها شممت رائحة عطر أو خيل إلىّ ذلك . لكننى بهت حين طالعتنى ورقة عرفت أنها بخط يدى . وأدركت بعد قليل أنها هى الرسالة التى بعثت بها إليها خلال فصل الصيف . وكان معها رسالة أخرى مختصرة ثقيلة مجرمة كأنها حكم ظالم .. كانت تقول فيها :

« إنك تعلم ماذا صنعت بى . لقد بعثرت شبابى أيها الظالم وأشعلت النار فى ثيابى بعد أن وثقت بك . لقد دسست لى مخدرا فى الشاى يوم كنت معك وآذيتنى . أنا أتركك لضميرك وأترك جزاءك لله . »

وجعلت أدور فى الحجرة كأننى ملسوع وأهذر كأنها أمامى .

وأشعلت نارا وأحرقت كل آثارها ثم نزعت المسمارين وقذفت بهما .. ثم بقيت أعد الأيام وأنتظر اليوم الذى تصادفنى فيه .

وفى عصر يوم رأيتها خارجة من المدرسة وأمسكت نفسى حتى لا أنقض عليها وأمسك بتلابيبها وأحاسبها على اتهامها الكاذب ، لكننى أحسست بالشفقة عليها بمجرد أن صافحها بصرى .. كانت كما سأصفها لك ، تماما ، بلا أدنى مبالغة :

ضعيفة عجفاء سينقصم خصرها عندما تتحرك ، والعينان واسعتان لامعتان ، فى نظراتهما سهوم كأنها مريضة بالأعصاب . أما الذى أثار ألمى أكثر وأكثر فهو عدم اتساق ملابسها . قميصها حائل اللون غير مكوى جيدا

وحذاؤها وسخ وشعرها جاف كأنه لم يسق زيتا ولا ماء منذ أسبوع . حالة فتاة يقف بينها وبين النظافة طارئ لا يغلب .

ولما اعترضت طريقها كادت تجهش بالبكاء ثم خيل إلى أنها تتلفت شأن من يختار الجهة التي سيجرى إليها ، فقلت لها بجأش ثابت : « ابقى »

ووقفنا عند المحطة التي ستركب منها كما كنا نفعل قديما لأنها لم توافق على أن تفعل خلاف ذلك . وسألتها عن المأساة التي نسبتها إلى ، فقالت لى :

— أنا أعلم أنني كاذبة . لكن .. أريد أن أبعدك عنى .

قلت غاضبا :

— بهذه الطريقة ؟

— لا ترفع صوتك . فالمسألة مصيبة من أولها إلى آخرها . وأنا المسئولة عنها وحدى . وسرها فى صدرى لم أستطع البوح به لأحد حتى الآن .

— يعنى أن الذى نسبته إلى حدث من شخص آخر تعرفينه وحدك ؟

فقالت فى انكسار ودمعة تجرى على وجهها :

— لا ترفع .. صوتك ..

ساد صمت . وتخلف الترام الذى كانت تنتظره . وخلا المكان من الناس تقريبا فلم يكن على المحطة إلا رجل وامرأة بالقرب من مصباح النور . هممت أقول :

— أردت بهذه الطريقة أن تعترف لى لكن على حساب أعصابى ؟

— كنت أريد أن أثير احتقارك .. ولو أننى ..

— مظلومة .. أليس كذلك ؟ .. كلهن يقلن هذا .

وجرت دمعة أخرى على خدها وسمعنا كركبة الترام فى طريقه إلينا ، فتأهبت للفراق . وألقيت عليها نظرة فاحصة سريعة شاملة فتبينت أنها —

حقيقة — فقدت شيئا . لكن قلبى خفق من أجلها .

وقبل أن تصعد إلى مقصورة الحريم قالت كلمة واحدة ووجهها شاحب وعيناها تنظران إلى الناحية الأخرى :

— لا أحب أن أراك .

واتصلت نهاية كلامها ببداية نفخ الزمارة . وتحرك القطار ، وبقيت فى مكانى أتلفت وأذناى مشبعتان بالهمس والصفير حتى رأيت النور ينبثق من المصباحين اللذين يحددان المحطة ، فسرت أضرب فى غير اتجاه .

بعيد عن العين

كان من عادة أصحاب هذا البيت الذى سكنته وأنا طالب ، أنهم لا يسكنون عزابا .. إلاّ أنا .

والسبب فى ذلك بسيط وهو أننى بعد أن سئمت من السكنى المشتركة مع الطلبة ، دبّر لى والدى أمورى حتى لا أشكو ولا أدخل الملاحق . ولا أدّعى أن النقود سرقت من جيبى . فاستغنى لى أبى عن زوجته القديمة لتقيم معى فى القاهرة . فسافرت معى أمى أول هذا العام ، لتقوم على شئونى ، وبقيت مع أبى زوجته الجديدة .

والمهم أننا أخذنا سكنا صغيرا فى هذا البيت الذى سرنى بعد أن تفرجت على حجراته أن يأتينى من وراء أحد الأبواب فيه صوت بناتى ، يسأل بعد تلقين عما إذا كنت عازبا أو متزوجا ، فأجريت أصابعى على ذقنى التى احتفلت بحلاقتها منذ ستة أشهر ، وأنا أبتسم وأجيب :

ـــ لست عازبا .. ولا متزوجا .. معى أمى .

ومن وراء الباب جاءت ضحكة مستحية ، من سمراء نحيفة كانت تنظر بشق . نصفها بالطول وراء المصراع ونصفها الآخر واضح للعين . جلبابها القطنى أبيض الأرضية ، فيه أزهار حمراء كبيرة الحجم . ثم اتخذت إجراءات التعاقد ، ثم نقلنا أثاثنا المتواضع إلى هذا المسكن الصغير .

وطول الشهر الأول لم يحدث فى حياتنا ما يثير الانتباه .

كانت أمى معتزلة كل سكان البيت فى الحى الوطنى العتيق ، الذى تقوم

العلاقات فيه بين النساء لمجرد تجاور الحيطان أو النوافذ أو تقابلها .. كانت بطبعها ميالة للعزلة ، ثم هى خائفة علىّ مما جرى لأخى الكبير أيام أرسلوه إلى طنطا ليدخل المعهد الدينى فرجع بزوجة طنطاوية لتعيش فى القرية . وترك الكتب والعلم لأهل العلم هناك ، كما كان يقول .. فرصة !

لذلك لم يحدث طول الشهر فى حياتنا شىء يثير الانتباه .. مطلقا .. مطلقا حتى إذا ما أهلّ الشهر التالى ، كان أبى قد أرسل إلينا أخى الأكبر يحمل مئونة ونقودا وتوصيات . كان يشتهى أن يرى قبل أن يموت — على حد قوله — أن له ولدا متعلما يتكلم فى السياسة ويناقش الدين ، فيخرج حديثنا فى الدار عن أسعار القطن وآفاته وتخزين المحاصيل .. والحلم بالنساء .

ولما دخل أخى علينا ، كان فى عينه مرح ، ووعد لى بالفشل ، إما قريبا وإما بعيدا ، وحين أطل من شباك على المنور فرأى « دولت » تنشر فيه بعض المناشف ، رجع وفى عينيه وعد بالفشل .. لى طبعا ، متنبئا بأننى سأعود بها زوجة (كما فعل أخ له من قبل) وأترك العلم لأهل العلم فى المدارس الثانوية .

ونزلت أمى إلى صاحبة البيت لتدفع الأجرة . ومن الغريب أنها غابت تحت ، فأخذت أتلصص لأسمع ما يدور هناك ، فلم يصل إلى أذنى صوت . ورأيت الفتاة منكفئة تجمع بعض الغسيل من الحبال القصيرة وغدائر شعرها هابطة إلى تحت كأنها جدائل الصفصاف . فأخذت أتاملها وأنا فى مكانى ، وعودها الهش النحيف الذى يقطمه أى شىء ، وحركتها السريعة التى كأنها تنبعث من زمبرك ، وأتذكر نظرات أخى ، ووعده الذى كان يفيض من عينيه .

ولما صعدت أمى كانت مرتاحة الأسارير ، تتحدث فى افتتان وحب وشغف ، عما لقيته عند هؤلاء الناس :

— الست الكبيرة .. عمياء ! .. تصور يا بنى .

و لم يكن ذلك غريبا عندى ، وإن كان بصرى لم يقع على هذه المرأة .

وانشغلت لحظة — فى طول لمحة العين — فى الموازنة بين ما ينبعث من عينى الفتاة ، وما تموج به عينا أمها من ظلمة . فى الوقت الذى سمعت فيه صوت أمى تكمل حديثها :

— فقدتهما على كبر .. تراها فلا تعرف أن بها مرضا .. لأن وجهها لا يزال مضيئا كوجوه المبصرين .. نظيفة فى جلباب ناصع وهى على فراشها ، كأنها قديسة . ولما حكت لى تاريخ بلواها ، سالت الدموع من عينيها ، فبكيت لها ..

وسرحت أسأل نفسى :

— وكيف تفقد العين نورها ولا تفقد دمعها ؟ هل خلقت للبكاء ؟! ما معنى هذا ؟!

وكانت أمى تقول :

— كل من حولها يطيعها .. أما دولت فهى تحت قدميها ، كأنها جارية .

وأطرقت أمى تتأسف على أنها لم تلد بنتا ، والأمهات يفعلن ذلك حين يذكرن أنهن لن يجدن من يسبل عليهن الغطاء يوم وفاتهن . ثم استطردت تتكلم :

— روحها طيبة قوية ، لا تشبع من كلامها ولا من النظر إلى وجهها .. إننى يا بنى أصبحت أحب هذه المرأة .

ومن الغريب أن العشرة لم تدم بينهما طويلا ، فبعد ثلاثة شهور أو أكثر ، وقع حادث لم يكن فى الحسبان .

رأيت أخى الكبير يومئذ يدخل علينا دخلة غريبة . فى عينيه

الفصيحتين كلام ، ويده خالية من الهدايا ، و لم يكن على وجهه ما يفيد أن شيئا خطيرا قد حدث ، فخبطت أمي على صدرها ، ونهرته ليسرع بالكلام ، فقد كان ثقيل الدعابة ، قال :

ـــ إنها ماتت ..

ـــ من ؟!

فردّ بسخافة تتنافى مع كرامة الموت :

ـــ من ؟! .. المرأة الوحيدة التي لن تحزنى على موتها يا سيدتى !

لكن أمي انخرطت فى البكاء على ضرتها . وكان يقطع شهقاتها بين الفينة والفينة لفظ سباب أو عتاب توجهه إلى ابنها . لكننى فى قرارة نفسى كنت أعجب لجزعها عليها .

واستبقى أبى زوجته القديمة فى القرية بعد موت زوجته الجديدة . فعدت أنا إلى حياة الوحدة . وبدأت أشعر بلذة غامضة فى النظر من « المنور » على الفتاة إذا أطلّت منه .. وبلذة أكثر غموضا وإنعاشا إذا سمعت صوتها المتهالك أو حملقت فى صدرها الحى .

على أننى كنت أذكر موقف أخى منى ومن نفسه ومن أبى ، ثم موقفنا جميعا من الأسرة وأهل القرية إذا رجعت ـــ أنا الآخر ـــ بزوجة . كما فعل أخى عندما عاد إليهم بزوجة من طنطا ، فأمسك نفسى حتى لا أضيع .

لكن العلاقة بدأت بيننا تنسج نفسها ببطء ، متمثلة فى الهمسة والنظرة والتحية ، ترتفع بها الكف وتتحرك بها الشفتان دون لفظ .

و لم أشعر بالوحشة فى المسكن وأنا وحيد .. كنت أشعر أن أرواحا كثيرة قريبة منى أميزها وأكثرها وضوحا روح « دولت » وأمها الضريرة ، التى أجرت كفها على رأسى ذات يوم وأنا عندهم ، فشعرت بأن الحنان شيء ناعم

الملمس حقا ، يسيل من فوق رأسي حتى يغرق جسمي وروحي . وكانت دولت على مقربة منا تبتسم واقفة ، وتقول بعينيها العسليتين « إن عندنا أعذب من هذا » .

وبعد ذلك أصابني أرق .. كنت لا أنام القدر المقرر المطلوب لشاب في عمري يدرس ويذاكر . وفي ليالي الأرق كنت أرسم خطة على الهواء لهجوم إيجابي نحو الفتاة . ونشأ عن ذلك أنني جنيت متاعب بلا لذة ، قضيت في غمارها شهرين زارني أخي الأكبر في نهايتها ، ودخل وعلى وجهه ابتسامة القوة والتربص والشماتة . ولم يكد يستقر على كرسي حتى أشار لي بكفيه :

ـــ عزّل يا سيدي عزّل .. ياللا على سكن تاني !!

وذهلت .. وأطرقت لا أسأل عن السبب ، لكنني أحسست ـــ حين ذكرت دولت ـــ بآلام من يخلعون ضرسه السليم بلا تخدير ، وبحثت عن ريقي وسألته :

ـــ من قال ذلك ؟

ـــ ها ها .. هي هي .. أتسأل ؟! المدير العام يا سيدي .. أبوك .. حضرتك عاوز تتجوز ؟! كفاية خيبة واحد .. يا سلام !! عامل مش واخد بالك .. يا أسمر يا أسمر .

وفي ضحك يفتت المرارة قام فهدم السرير وحرك الدولاب في شماتة . وتبين لي أن أبي قد اتفق مع والد أحد التلاميذ من بلدنا على أن أشاركه في السكن . ومن هناك صدرت الأوامر للشريكين في طنطا .

ولآخر مرة انسللت أبلغ الخبر لصاحبة البيت ، وتلقيت من كفها مسحة على رأسي ، تأكدت بها أن الحنان شيء ناعم الملمس .. أما عيون الفتاة فقد كانت معتركا للدهشة والحب وخيبة الأمل .

* * *

وعدنا — من جديد — للوجوه العسرة ودورة المياه المشتركة ، وحياة المعسكر الخالية من كل طريف .. وكنت أبتهل أحيانا إلى الله أن يتزوج أبى ليرسل إلى زوجته القديمة .. أمى .. لترعانى .

ولكن .. هل يعود ما فات ؟!

أما زميلى الجديد فى المسكن ، فقد كان كالزوجة التى لم يؤخذ فيها رأى زوجها ، كما يفعلون فى الريف .. كان وخما ترابى المزاج ، ينفث الكسل فى أجمل حركات المرح .. لو اقترب من طفلة تعبث أو نحلة تدور لتوقفت عن الحركة وأصابها النعاس .

واختلفنا ذات مساء عقب كسر طبق من الصينى كان مشتركا بيننا .. ولست أدرى لم تشابكنا بعدها فى عراك .. وفى مساء الليلة التالية اكتشفت سرقة نقودى فعاد العراك مرة أخرى . وتكاملت المخاطر تماما حين دفعنى بقبضته فتزحلقت ، حتى اصطدم جبينى فى زجاج الشباك .. وتدخل الأبوان ، ثم تم الانفصال بيننا بعد ذلك .

وبلا زواج .. استغنى لى أبى عن زوجته الوحيدة ، فجاءت معى أمى إلى المدينة ، لأننى كنت قد رسبت فى الامتحان .

وكان أخى يبدو شديد الفرح ، حتى إنه قال لى وأنا أبكى من سوء المآل :

— عينيك خسارة .. ما تعيطش .. مدارس إيه يا شيخ .. الجوز أحسن !!

وضحك وهو ينصرف عنى .

ولما سافرت معى أمى ، سكنا فى منزل غير منزل « أم دولت » ولما كان الشوق يهزنى إليها باستمرار وكنت أمر على بابها فلا أجرؤ على الدخول ، فقد ظللت أحتال على أمى حتى ذهبنا لزيارتهم .

وكان الوقت مساء حين دخلنا .

وطرقنا الباب ، ففتحت دولت ، وبدت فى عينيها الضحوكتين دلائل الدهشة ، ولم يكن ترحيبها حارا .

وبجوار الأم العمياء كان شاب من سنى شديد السمرة ، له ضب عظيم وجبين ضيق وشعر مثل شوك القنفذ ، وعلى مقربة منه منضدة عليها كتاب مدرسى ، وطبق فيه « كسكسى » بالسكر .

ولم تدخل علينا « دولت » إلا قليلا .. ولم يكن شىء من القلق من أجلى يشيع فى عينيها ، ولا فى حركاتها .

وفتر الحديث وبطؤ ، وكانت الضريرة تتنحنح بين فترة وأخرى وكأنها لا تجد حديثا ، وأخيرا — وكأنما بدا لأمى أن تعرف شيئا خطيرا — سألت عن الشاب الذى قام وانصرف حاملا فى يده كتابه ، فأجابت صاحبة المنزل :

— ساكن .. ساكن فى شقتكم التى كنتم فيها ..

إنه ليس وحده .. أمه معه لكنها سافرت .. ستعود .. تأكدى من ذلك .. نحن لا نسكن العزّاب !

وفى هذه اللحظة كان بصرى يتسرب من الباب ، ويرى الواقفة عند مسقط النور لتنشر على الحبال الإضافية منشفة ، يخيل إلى أنها لم تكن مبلولة .. كانت هى دولت .. وجهها إلى أعلى .. وعلى ملامحها ابتسامة لا تدرك بسهولة ، تهدى إلى إنسان ، لم تكن خافية علىّ ، فقد أهديت إلىّ من قبل ، فتأوهت فى سكون ...

ولما قالت الضريرة بعد فترة صمت : آنستونا ، قالت أمى وكأنها تنام : الله يآنسك يا ستى . وجمعت أطراف ملاءتها للخروج وكنت وراءها .. ولم نعد بعدها .

الأفندى الشارد

وقفت من هذه الحادثة موقفا محايدا ربما لا يرضيك . دفعني إليه شيئان أضعفهما قوى . إنهما حب الاستطلاع ، وثانيهما الشفقة التى تقودنا أحيانا بزمام لا نستطيع أن نغلبه .

كان ذلك فى ضحا يوم لا أذكر أكان سبتا أو خميسا . لكننى أذكر أنه لم يكن يوم جمعة ، فقد كنت ذاهبا إلى عملى .

وركبت من ميدان الجيزة قاصدا وسط المدينة . وكان الترام مزدحما نوعا ، والكمسارى شديد التذكر ، يطلب التذاكر من الركاب بنوع من العصبية ، وينفخ فى الزمارة بشىء من القسوة ، ويشتم السائق وبعض النازلين من الجمهور بصوت خافت ..

لم أكن جالسا لأن المقاعد مشغولة ، فوقفت فى وسط العربة فى الساحة الصغيرة المربعة الواقعة بعد السلم الأوسط ، وقفت فى نهايتها بحيث كان القطار المضاد يمرّ بجوارى . واتكأت على الحديد ، وعمل ثلاثة من الركاب العمل نفسه فشغلنا الساحة كلها . ولما كانت القاعدة أن ينتبه كل امرىء إلى جاره فى المركبات العامة خصوصا وقت الزحام ، فقد تفرست فى الواقفين إلى جوارى بنظرة راعية ، فرأيت على يمينى رجلا مسنا يلبس معطفا على جلباب من البوبلين ، ويكبس الطربوش فى رأسه وتبدو عليه ملامح الطيبة . ورأيت على يسارى شابا فى نحو الثامنة عشرة يلبس حلّة فى نصف عمرها ، سبقها نموه فبدت ضيقة قصيرة ، أو لعلها كانت لشخص أضأل منه ، وانتبهت إليه لأن

عينيه كانتا قلقتين نوعا ما .

وامتلأت الصالة بالراكبين ، وبقى فيها مجال يستطيع الكمسارى أن يتجوّل فيه ويقول :

« ورق .. ورق .. » .

وكان لا يزال متذمرا ، كأنه تشاتم مع زوجته فى الصباح . ونادى وزمّر ، ثم عاد يهتف ويطلب التذاكر ، وأخرج الرجل قرشا من طرف منديل ربط على القرش ، وأبرزت أنا الأجرة من جيبى الصغير ، ولكن الشاب الواقف على يسارى لم يفعل شيئا ، بل ظلّ ناظرا إلى الشارع فى شرود خيّل إلىّ أنه يصطنعه حتى تمر الزوبعة ، ويتحرك الكمسارى فيغيب فى الزحام وينجو من دفع القرش ، لكن الكمسارى المتذمر هتف بصوت مرتفع :

« ورق .. ورق » والله العظيم .. تذكرة يا أستاذ .. حاجة تجنن .. يظهر اننا لازم ننادى الركاب بأساميهم .. »

ثم نفخ فى الزمارة ليسير القطار ، وقال يقصد السائق :

« يالله يا سى عمر ، امشى بأه نهارك زى وشك » .

على حين كان يأخذ الأجرة من الأفندى الشارد ، ويناوله الورقة وعيناه المتربصتان الغائرتان تقول له : على مين يا ابنى .

وتوقف القطار طويلا عند محطة قصر العينى حي ينزل ناس قليلون ، ويركب ناس كثيرون . ففى مثل هذا الميعاد من كل يوم تزدحم المحطة بأخلاط من الناس خارجين من العيادة الخارجية .. فيهم من يحمل زجاجة وحقّا فى الأولى مزيج ، وفى الثانى مرهم ، وفيهم من يجر عجوزا ضعيف النظر .. وفيهم من تحمل طفلها ، وفيهم من يقود ولده ، وفوق كل هذا وذاك موظفون وعمال وعساكر بوليس وطالبات وطلبة .

وامتلأت الصالة بعد تدافع الناس ، ووقف ركاب على السلم ، وصاح راكب قصير ضئيل القامة .. يقول بدعابة لا تخلو من الغرض .

« فعصتونا يا ناس ، خلاص ح اموت » .

واشرأب الكمسارى واقفا على أطراف قدميه ، ينظر إلى السلم قبل أن ينفخ فى الزمارة مصدرا أمره بالسير ، و لم ينس أن يقول بلهجته المتذمرة قاصدا السائق :

«يالله يا سى عمر .. امشى بأه .. نهارك زى وشك » .

واستأنف القطار سيره ثقيلا مهوشا مزدحما كأنه قفص دجاج .

تلفت يمنة ويسرة بعد أن اشتد التزاحم ، وتحسست جيبى بكوعى ، وألقيت نظرة حريصة على كل من حولى ، رأيت جارى من على اليمين ، نفس الراكب العجوز لا بس الطربوش المكبوس .. ورأيت جارى مسن على اليسار ، نفس الأفندى الشارد لا بس الحلّة الضيقة القصيرة وأمامنا الرجل الضئيل القصير الذى خاف أن يفعصه الركاب .. وإلى جواره امرأة متوسطة القامة ، كان ظهرها إلينا .. وكان عليها ملاءة ، فيها بقع عجين ، وثقب لعله من فعل صرصار أو لعله من أكل الزمن ، وداست على قدمى بحذاء رجالى ، أو حريمى واطى الكعب ، وأهم ما فيها ما كان على كتفها .

كانت تحمل على أحد كتفيها طفلة ضعيفة خيل إلىّ أنها بنت سنتين ، فى وسطها حزام يتدلى منه حجاب وبعض خرزات ، ورأسها مربوط بمنديل أزرق ومرتاح على رأس الأم . وفى عينى الطفلة بوادر نوم أو لعلها آثار تعب لأنها راجعة من مستشفى « أبو الريش » وكفها الصغيرة منطبقة على شىء .

وأخذت الأم تجادل الكمسارى فى أنها تركب من هنا دائما بقرش واحد ، أعنى مسافة لا مسافتين ، والكمسارى يجادلها بغير التى هى أحسن .

وانتهزها فرصة فأفرغ آلام نفسه ، ونعى عليهن خيبة أملهن فى العصر الحديث ، وعدم استقرارهن فى البيوت ليقوم الرجال بكل حاجاتهن .

وأخيرا دفعت التذكرة ، وهمست تشتمه بعد أن ابتعد ، وتحرك الترام فهزهز الركاب ، وقال غلام على السلم :

« سواق غشيم » .

واصطكت الأجسام المتقاربة بعنف نوعى ، وفتحت الطفلة الغافية على كتف أمها عينيها المثقلتين ثم سعلت وابتل فمها باللعاب ، وبدا الشحوب على وجهها إلا فى منطقة الخدين فقد كان عليهما احمرار لعله من أثر الحمى . ولاحظت أن إحدى ذراعيها تسترخى ، ذراعها المطلقة المقفلة الكف على شيء .. وأخذت كفها تنفتح قليلا ، ويبدو من أصابعها الصغيرة استدارة قرش ، وهممت أن أنبه الأم إلى أن قرش الصغيرة سيسقط من يدها ، لكننى اعتبرت ذلك فضولا تافها ، ورأيت بنظرة غير مقصودة عينى الأفندى الشارد تلمعان بغرض . ولما استبعدت أن يقدم على مثل هذا العمل ، تذكرت أنه كان يفرّ من دفع الأجرة ، فوليته جنبى وتصنعت النظر إلى فضاء الشارع .

كان الزحام لا يزال شديدا والأم ذات الطفلة قريبة من هذا الأفندى .. وكان الرجل المسن مشغولا بقراءة دعاء .. يتمتم بشفتيه باستمرار ، فخمنت أنه ذاهب إلى المحكمة . أما الراكب الرابع فقد كان يقرأ مجلة على الرغم من ضيق المكان . واهتز الترام وترجرج بعد قيامه من إحدى المحطات ، فهتف نفس الغلام الواقف على السلم :

« سواق غشيم » .

وازداد انفتاح كف الطفلة ، وسقط القرش فى اللحظة التى انطبقت فيها أجفانها تماما وهى ملقية رأسها على رأس أمها واللعاب عالق على شفتيها ،

ثم استرخى ذراعها إلى تحت وأخذت الأم تعدل الملاية ..

لم يلحظ أحد فى الزحام ما حدث سواى . كنت ناظرا بجانب عينى متتبعا حركة الطفلة وعينى هذا الأفندى ، و لم أعجب كثيرا حين رأيته يبسط كفه تحت القرش ، فيلقفه قبل أن يصل إلى الأرض وبعد ذلك ، تململ فى موقفه وبدا عليه ما يبدو عادة على من يقترف خطيئة . وتجاهلت كل هذه الحركات وظهر عليه تماما ما عزمه على النزول فى المحطة القادمة ، وتحرك وطبطب على كتف من أمامه قائلا :

« تسمح » !

و لم تكن هذه محطتى ولكن حب الاستطلاع كان أقوى من شفقتى على الطفلة ، وشفقتى عليه شخصيا حين أغضيت عن فعلته كانت أقوى من استطلاعى .

ونزل ، ونزلت وراءه ، ووقفت قليلا على جزيرة المحطة حين تبين اتجاهه ، وكنت أقول فى نفسى وأنا أنظر على الرصيف المقابل إلى واجهة محل تجارى كتبت عليه بخط كبير كلمة « سندوتش » فأيقنت أن هذا الشاب جائع ..

وتحرك فى اتجاه آخر غير اتجاه بائع السندوتش ، فسرت وراءه على بعد ، وتوقف أمام أحد المحلات ، فنبت فى نفسى فجأة احتقار شديد له ، لم أعد أعطف عليه بل أنحيت على نفسى باللائمة وقلت بينى وبين نفسى : إن مثل هذا الشاب لا يؤمن على شىء لأنه غير أمين على طفلة مريضة ، لو أنه اشترى رغيفا لعذرته ، لكنه اشترى ثلاث سجاير .

وحين أشعل واحدة منها من المصباح السهارى الصغير الموضوع على

رخامة المحل ، وشد نفسا طويلا ثم نفخه من فيه بلذة كنت واقفا فى طريقه وأنا أنظر إليه نظرة فصيحة .. واضحة ذات مدلول .

قصت عليه قصته الحقيرة ، ونغصت عليه لذته ، كانت تقول كلمة واحدة ، لا تزيد هى : « إخص » .

إلى زوجة أبى !!!

سيدتى ..

أنا واثق أنك ما زلت تذكرين هذه الليلة كما أذكرها أنا تماما .. وإذا كنت قد نسيتها يا سيدتى فأذكرك بها ، وعندئذ تحضرك تفاصيلها كأنك تعيشينها الآن . اغفرى لى إذا أقلقت راحة ضميرك ، وحركت سواكن نفسك بعدما هدأت على مر الزمن ولكننا ونحن فى السبعين من العمر قد لا نغفل عن حوادث مرت بنا فى سن العاشرة . سيدتى .. إذن فاغفرى لى !

حين ماتت أمى كنت فى الثامنة من عمرى ، ولم تتركنى وحدى ، بل تركت معى أختا فى الثانية من عمرها . ولن أحدثك ـــ بهذه المناسبة ومادامت الفرصة قد سنحت ـــ عن الأحزان بعد فقد الأم ، فإنك بعد أن صرت زوجة لأبى قد عرفت ولا شك سر العلاقة المقدسة البديعة التى تربط الأم بأبنائها ..

لن أحدثك عن ذلك بل سأحدثك عن الإحساس الذى اجتاح نفس أبى بعد وفاة زوجته الأولى .

كان أبى يحبنا ولا شك . وكان يحب الصغيرة أختى « روحية » فيما يخيل إلى أكثر من حبه لى .

فقد كانت « روحية » محتاجة إلى حنان . والحنان يا سيدتى إذا أضيف إليه الحب كان شيئا رائع المظهر .

وكان أساس المشكلة التى اعترضت أبى بعد وفاة أمى هى : « من هى

المرأة التي تستطيع أن ترعى هذه الصغيرة روحية ؟! »

وكان يشتغل ساعيا بإحدى الوزارات ، مقربا من المدير العام فيها ، لذلك عشنا فى راحة نوعية ، ولم يكن من المستطاع أن يتأخر عن عمله ولا من الممكن أن تترك الصغيرة وحدها . لذلك فقد كنا نتحايل على المشاكل بإحدى حيلتين ، فإما أن أتأخر أنا عن مدرستي لأونس أختي وأرعاها ، وإما أن نتركها وديعة لدى صاحبة البيت ، وهى امرأة حاجة مسنة لا تظهر الطيبة على وجهها أو على شعرها الأزرق .

وفى أيام الجمعة ، كان أبى يطبخ لنا بيده ؛ لأنه كان كثيرا ما يعود بعد الظهر إلى عمله ويظل حتى وقت من الليل .

وكنت أعصر له الطماطم أو أقشر له الباذنجان . وبعد ذلك يأتى دور الغسيل والكنس والمسح . ولا أحدثك عنه ...

وفى يوم من الأيام امتنعت الحاجة صاحبة البيت عن إيواء أختى ، وكان ضروريا أن أذهب إلى المدرسة ، لأن كثرة الغياب هددتنى بالفصل ، وتسلم أبى خطابا بهذا المعنى . لذلك رأيت يومئذ دمعة تجرى على ذقنه غير المحلوق ، وهو يرجو المرأة العجوز فى إيواء « روحية » وهممت أقول شيئا لكننى توقفت لأننى كنت أرهب أبى . من ناحية ، ومن ناحية أخرى رأيت المرأة تمد يدها المعروقة فتأخذ الصغيرة إلى داخل السلاملك .

وفى المساء يا سيدتى جلس أبى يتحدث إلى .. ونحن فى بعض الأحيان نخاطب الصغار بلغة الكبار إذا ضاقت المسالك وعز المعين .

قال أبى وهو يشعل سيجارته المحبوبة بعد العشاء ، وفى يده كوب صغير من الشاى :

— اسمع يا فتحى .. هل لا تزال تذكر موقف المرأة الملعونة منا صباح

اليوم ؟!

فقلت بحماسة وغيرة :

— نعم يا أبى .. أذكر .

فقال بعد أن جرع جرعة طويلة لها صوت منغم :

— إن هذه المرأة تضيق على الخناق لحاجة فى نفسها .. إنها تريد أن تزوجنى بنتها المطلقة التى عرف الناس كلهم قصتها مع زوجها الأول . قصة شنيعة .. شنيعة ! .

و لم أكن أعلم من أمر هذه القصة شيئا ، و لم أجرؤ أن أسأل أبى الذى سكت و لم يقل لى عنها أى شيء . لكنه بعد فترة صمت عاد يحدثنى بلغة الكبار قائلا لى :

— تعرف يا فتحي أن أمك كانت أعز مخلوق عندى ! ..

وانخرط فجأة فى البكاء كيوم ماتت أمي .. وجاءنا فى هذه اللحظة أنين الريح بالليل فى مسكننا العالى كأنه نواح يجامل دموع أبى .

ولما هدأ مابنا جفف كل منا دموعه ، وعاد أبى يتحدث بصوت شرخه البكاء فقال :

— آه يا بنى .. تعرف يا فتحي ، لولا الصغيرة روحية ما عذبنا شيء فى هذه الدنيا .. أنت على وشك أن تصير رجلا ، فليس بنا حاجة إلى النساء مطلقا .. لكن .. لولا « روحية » !

وأنت يا سيدتى لم ترى « روحية » و لم تعرفيها . ولعل ذلك من حسن حظكما معا .. فقد كان خيرا لكما ألا تلتقيا . فقد حدث أن شربت « روحية » كوزا كبيرا من الجاز فى يوم من الأيام التى تركناها فيها وديعة عند صاحبة البيت ، فلما عدنا نسأل عنها قيل لنا إنها فى المستشفى ، وهرولت أنا

وأبى فوجدناها هناك فى غيبوبة ، وما لبث الأمر أن انتهى بعد يومين ، واستراحت روحية .

على أن موتها يا سيدتى كان وقودا جديدا لأحزان أبى ، فقد كان يحدثنى عنها بعد ما يحدثنى عن أمى فى بعض الأمسيات . وكان يفترض أنها ستكبر وأنها كانت ستغنينا عن الناس بما تقدمه لنا من خدمات فى البيت .

ولم يلبث موقف أبى بعد عام واحد من وفاة أمى أن اتخذ وضعا غريبا ، فلقد كان فى الماضى يلمح بالزواج من أجل وجود « روحية » وصار فى الحاضر يلمح بالزواج من أجل فقد « روحية » .. ففى الحالة الأولى كان يريد من يخدمها ، وفى الحالة الثانية كان يريد من يخدمنا . حتى هداه الله إليك ، وتزوجك ..

حتى هداه الله إليك يا سيدتى ، ودخلت علينا ذات مساء فانزويت أنا فى ركن صغير من المسكن كما تفعل القطة الغريبة . وأخذت من أول يوم تقابلين تحببى لك بالإعراض وتعاملينني كما يعامل الخادم . وأنا على صغر سنى كنت واثقا من محبة أبى لى وإن فقدت اهتمامه . فمهما كبرت ، وبفضل ما وهبنى الله من جلد ومثابرة أدركت أن الخير قد ينبع من قلب الشر ، وأن قسوتك على هى التى جعلت منى رجلا ، وأدركت أيضا أن عدم اهتمام أبى بى ليس إلا نوعا من السكر الذى ينتاب الصاحين فيتركهم فى نصف وعيهم مخدرين ، ولا يحسون إلا بما يوحى به الذين يسقونهم الكأس !

أما الليلة التى كانت فاصلة فى تاريخ حياتنا ، فإننى سأذكرك بها إن كنت قد نسيتها ..

كانت ليلة شتاء مطيرة . وكنت فى السادسة عشرة من عمرى وأولادك صغار .. ثلاث بنات كالقطط ، وكأننى أنا الذى وهبتهن لك ، فقد كنت

أحس أنك تنقمين على أنني ذكر وهن أناث .. فى هذه الليلة تأخرت كثيرا فى المذاكرة ، ثم دخلت إلى فراشي ، فاندسست فيه وأدفأته بأنفاسي . وكان أبى فى الخارج ، وكنا — أنا وأنت — وحيدين فى المسكن ، والبنات نائمات .

فجأة استيقظت على نور يغمر غرفتى ، فنحيت الغطاء عن وجهسي ونظرت فإذا بك أمامى فى حجرتى وجها لوجه متغيرة الملامح ، كأن شيئا خطيرا قد حدث . قمت مذعورا حتى جلست فى الفراش وسألتك عن الخبر ، فقلت لى بلهجة مستفزة :

— ألا تسمع كل هذا ؟! ..

ولما أشرت إلى النافذة المغلقة أرهفت سمعى ، فإذا السماء تسح مطرا غزيرا وسألتك عن أبى فقلت لى إنه لم يأت ، وإن هذه الليلة ليلة نوبته (نوبتجيته) التى يقضيها فى الديوان .

ولم أفهم شيئا مما قلته ، واستوضحتك الأمر ، فأمرتنى بأن أنهض من فراشي وأتبعك ودخلت حجرتك فدخلت وراءك .. عندئذ فهمت كل شيء فقد رأيت السقف يسكب ماء على الفراش ، وفى ركن آخر من أركان الحجرة ، وكان البرد قاسيا والليل مخيف المنظر .. ولكنك قلت لى :

— ليس هناك إلا أنا وأنت ، وهؤلاء الأطفال اللائى ينمن كما ترى .. فإذا لم تصعد إلى (السطوح) لتسلك المزاريب عمنا فى بحر من المطر .

ولم يكن هذا رجاء بل كان إنذارا أعرف عواقبه . فلم أتردد يا سيدتى . وصعدت إلى السطح بواسطة السلم الصغير ، وأخذت أدفع الماء بالمكنسة من الحفر التى خلت من البلاط ، وأفتح المزاريب بعود من الحديد ، والرعد يفرقع ، والماء ينهمر والبرق يلمع كأنه يريد أن يخطفنى إلى أعلى !!

ثم نزلت مبللا تماما ، وكأنما نفذ البرد إلى نخاع عظامى . ونمت فى الفراش

فلم يدفئني غطائى ، و لم أجرؤ على أن أطرق عليك باب مخدعك وأبى غائب .

وفى الصباح قمت فذهبت إلى المدرسة كما هى عادتى ، لكننى رجعت عند الظهر محموما ، ولما سألنى أبى عن الأمر بمحضر منك ، قطعت أنت على سبيل الاعتراف ، وقلت بلهجة تهون أضخم المصائب :

— ماذا يكون ؟! ماذا به ؟ .. إن المسألة لا تزيد على أن تكون قليلا من البرد .. نعم قليل من البرد ..

ومصمصت بشفتيك وأنت ترددين : (قليل من البرد) وتمنيت بينى وبين نفسى أن يكون ذلك صدقا .. (قليل من البرد) و لم أجرؤ على أن أصف ما حدث لأبى ، فإن أى شىء يحدث فى الحجرة كان بلا شك أخف ضررا مائه مرة من كل ما حدث لى .

وفى الليل كنت أهذى وأنا نائم وحدى . ورأيت « روحية » كأنها واقفة عند رأس سريرى دامعة العين ، تنظر إلى وفى يدها كوز من الجاز ، فارتعدت حتى أيقظنى الخوف من نومى .

وفى الصباح أمرتنى أن أذهب إلى المدرسة على الرغم من السعال الذى كان يمزق صدرى ، ووافق أبى على ذلك حتى كانت الليلة الثانية أسوأ من الليلة الأولى .

كل هذا والأمر فى نظرك ، ونظر أبى لا يعدو أن يكون قليلا من البزد ، حتى رأى أبى بعينيه أمرا لا يستطيع نكرانه . أمرا لا يمكن أن يسميه بردا ، فقد فقدت الشهية وفقدت النوم ، وحال لونى وكثر أرقى وأوهامى وتشنجاتى وعندئذ — وبعد مرور شهر — رأيت أبى ينكب على فراشى باكيا ويسألنى وهو يقبلنى ودمعه يسبق كلماته عن سر ما أصابنى . فحكيت له كل ما حدث .

وتذكرين يا سيدتى أننى بعد ذلك دخلت مستشفى الأمراض الصدرية فى أقصى الصحراء الشرقية من مصر الجديدة ، وأنه لولا مسعى المدير الذى يخدمه أبى لتعذر على الدخول ، وأننى كنت أقضى الأوقات هناك لا أرى أحدا كأننى لا أهل لى ، وأن عاما دراسيا كاملا ضاع منى ، وأننى أصبحت بعدها أشبه بلوح من الزجاج المشروخ ، هزة واحدة كفيلة بتحطيمى ، وأنه لولا ما أصابنى لتغير مستقبل حياتى ، فلقد كنت لا أستطيع أن أبذل فى دراستى نصف ما كنت أبذله قديما وأنا سليم .

وهأنذا اليوم يا سيدتى فى الثلاثين من العمر ، أشغل وظيفة متوسطة القيمة فى إحدى المؤسسات الكبرى وأمد يدى إلى أبى .. لأنه أبى ! وأنفق بقية دخلى على حاجاتى ، وأسكن وحدى بعيدا عنكما لأن ذلك هو الوضع الطبيعى .

وعندما أجىء لزيارتكم يا سيدتى فى الشقة الصغيرة التى غيرت تاريخ شبابى أنظر إلى أخواتى بناتك وادعو لهن بالهناء ؛ لأن الذين يذوقون الشقاء كثيرا ما يخافون على هناء الناس .. ولا أذكر عنهن شيئا إلا أنهن بنات أبى ، أما أنت فإننى أدعو الله فى خلواتى أن يغفر لك ، فالذى لا شك فيه أنك ما كنت تقدرين أن ما حدث كله كان ضروريا أن يحدث ، فتعلمى يا سيدتى أن الحنان صمام أمان .. مثل الجناح الذى تنشره الدجاجة على أفراخها بالليل .

وهأنذا يا سيدتى قد أحببت .. فهل يسعدك أن أحدثك عن حبى ؟ ذلك لا يهم .. ولكننى كتبت لك هذا الخطاب لأقول لك كل شىء ، لأن لذة مجابهتك بهذه الحقائق والنصائح هى كل الثمرات التى جنيتها فى حياتى ، فاسمعى إذن يا سيدتى قصة حبى باختصار ..

إنها زميلتى فى العمل ولا أدرى ماذا أعجبها منى ، وإن أعجبنى كل شىء فيها ، ولعلها أدركت بذكائها أو غريزتها أو بهما معا أن فى أعماق شيئا يعرقل

حركة قلبي ، فتلطفت معي حتى وجدتني أبوح لها بكل شيء ، فرأيت في عينيها اللتين برقتا بالدموع خيال الفتاة التي ستسعد حياتي .

بحت لها بكل شيء إلا شيئا واحدا هو حالتي الصحية .. فأنت تعلمين أول الناس أن موقفي من الحب والزواج موقف لا يسعدني أن أصارح به نفسي ، لكنني على الرغم من كل شيء استشرت طبيبا فقال لي بلهجة لينة :

ـــ أعتقد أنه لا مانع من الزواج ، لكن على شرط ...

ونظر إلي ، فلم أتركه يكمل ، بل سارعت أقول له :

ـــ ولماذا العناء .. إذن لا داعي له !

فابتسم في ارتياح ، لعلك تدركين بقلب الأم مدى أثره في نفسي ، فقد كان أشبه شيء بالسكين في الصدر .

ولم أستطع مكاشفة حبيبتي بالأمر ، وصرت أراوغ كلما دارت حول الموضوع حتى تعبت أنا فذهبت إلى طبيب آخر .

قال لي بلهجة لينة نفس ما قاله الأول فلما قلت له :

ـــ إذن لا داعي للزواج .

صارحني بسرعة قائلا :

ـــ إنه خطر شديد على حياتك .

فأدركت أنه حكم . حكم نهائي ، حكمت أنت به عليّ في ليلة مطيرة .

أما الطبيب فقد وضع حيثياته فقط !

ومع ذلك فإنني أستغفر لك لأنني واثق أنك ما كنت تقصدين أن يحدث لي كل هذا .. ما كنت تقصدين أن يضيع هباء نصف جهدي ، ونصف صحتي ، وكل حبي واستقراري في الحياة ، والطمأنينة والسكينة اللتان يطلبهما الطير والحيوان مثل الإنسان .

وهأنذا سأرحل عن القاهرة إلى إحدى عواصم الصعيد ، عساى أن أهدأ بالا ، بعيدا عن مكان ذكريات كلها ألم .. ونظير ما استغفرت الله لك ، ابتهلى إلى الله يا سيدتى أن أنسى هناك امرأتين ، أنت إحداهما .. والأخرى تلك الفتاة التى أحبتنى وحالت بيننا الحوائل .

* * *

الحذاء الجديد

رجع « حسن » من المدرسة ورمى كتبه بغيظ وجلس يبكى .. ورأته أمه فخافت عليه . جرت إليه وسألته وهى تطبطب على خده :

ـــ مالك يا حسن ؟! .. مالك يا حبيبى ؟!

فرد عليها وهو مخنوق من البكاء :

ـــ ولا حاجة ؟

ـــ ولد فى سنك يبكى من غير سبب ؟!

كان حسن يشكو ويبكى لأبسط سبب . وكانت أمه تقول له : إن الشكوى الكثيرة عيب .. والولد الذى يتعود على الشكوى يكبر وبدل ما كان ولدا كثير الشكوى يصبح رجلا كثير الشكوى يتضايق منه الناس ولا يحبون صحبته ولا الجلوس معه .

فرد حسن عليها بعد دقيقة وقال والدموع تملأ عينيه :

ـــ يا ماما فيه هنا وجع فى رجلى اليمين .

ـــ سلامتك . اخلع الحذاء لأرى رجلك .

وخلع حسن الحذاء وبصت أمه فى رجله فوجدت (كالو) صغيرا . فسألته :

ـــ هل وجعتك رجلك من الحذاء القديم ؟ .

ـــ لا يا ماما .

ـــ عال .. الحذاء الجديد سيتسع من المشى . لكن ... بالصبر .

وسكت حسن ولم يرد . وقام وهو متضايق .

وثانى يوم رجع من المدرسة وهو يبكى .. ولما سألته أمه عن السبب قال لها : إن الحذاء ضيق ، وإن رجله زاد وجعها وإنه لا يمكنه الصبر ، وإنه يريد الحذاء القديم بدل الجديد .

— قديم قديم يا ماما .. القديم الواسع أحسن من الجديد الضيق .

— لكن يا حسن .. أحمد أخوك أخذ حذاءك القديم . اصبر يا حسن وانس الشكوى .. والمشى يوسع الحذاء الجديد بعد يومين .

فزاد بكاء حسن .. ولما رجع أبوه من الشغل وعرف الحكاية ، أخذ حسن وراح معه إلى الرجل الذى صنع الحذاء . وكان الأب فى باله حاجة حسن لا يعرفها .

ولما دخل حسن وأبوه عليه الدكان .. قالوا له :

— السلام عليكم . قال لهم :

— عليكم السلام .

وبعد ذلك أبو حسن حكى حكاية الحذاء الضيق لصانع الأحذية فقال :

— اصبر يا حسن .. لأن الجلد الجديد ربما يضايق الرجل ، لكن .. بالصبر .. ترتاح .

فرد حسن وهو متألم :

— خذها وشدها على القالب مرة ثانية ووسعها لى من فضلك ؟ .

— مستحيل تتسع إلا بالمشى يا حسن .

— وأنا مستحيل أتحمل وجع رجلى .. مستحيل أتحمل ..

فاستغرب الرجل من ضعف حسن وسرعة شكواه .

حذاء ضيق يكون سببا فى كل هذه الدموع .. ومصمص الرجل بشفتيه

وسكت عن الكلام وانشغل فى العمل .

وبعد دقيقتين قال له حسن مرة ثالثة :

ـــ وسع لى الحذاء من فضلك . مستحيل أصبر على حذاء ضيق .

ـــ ولو يوما ؟ ولو يومين ؟ ولو ثلاثة ؟ .

ـــ ولا يوم واحد .

ـــ عال . بادلنى لأجل أن ترتاح .

فرد عليه حسن بفرح شديد .

ـــ أبادلك ؟ .. أنا موافق .

لكن حسن تذكر أن رجل صانع الأحذية أكبر من رجله هو فقال له :

ـــ لكن رجلك أكبر من رجلى !

فرد عليه صانع الأحذية :

ـــ ليس قصدى هذا . قصدى أن تعطينى رجلك والحذاء الضيق وتأخذ رجلى والحذاء الواسع .

فاستعجب (حسن) ونظر لوالده . ولكن والده لم يقل له كلمة واحدة فقال حسن لصانع الأحذية :

ـــ فهمنى قصدك .

ـــ حاضر .. حاضر . بص . هل ترى رجلى اليمنى . بص .

ولما نظر حسن رأى أن قدم الرجل مقطوعة ورجله من غير قدم وطبعا من غير حذاء .

وقال له صانع الأحذية وهو يضحك :

ـــ هل رضيت بالبدل يا حسن .. أنا شخصيا رضيت . أبادل !!
فابتسم حسن وهو يمسح دموعه وقال للرجل :
ـــ أنت شجاع . أنت شجاع جدا . أنت علمتنى أن الشكوى الكثيرة عيب .

* * *

الهدية

كانوا ثلاثة من بلد واحد كتب عليهم ألا يفترقوا .. شبانا لم يبلغوا الثلاثين بعد . فى يقين كل منهم أن القدر يقسم عليهم بالتساوى مسرات الحياة ومساءاتها مع تفاوت قليل .. وقلما كانوا يفترقون .. وكثيرا ما كانوا يتركون بلدهم ويرحلون للعمل فى بلاد أخرى .. ثم استقر بهم المقام فى أسوان .. وكتب لهم الحظ أن تكون أيديهم ضمن الأيدى التى شقت الأنفاق فى قلب الجبل ليمر منها النيل الجديد . وكانوا قلما يفترقون .. إن كان العمل على الأرض كانوا معا .. وإن كان فى سماء الأنفاق كانوا معا .. يتقاسمون الخبز والشاى ، وحتى الغناء .. الغناء .. فعندما يغنى الأول « ياليل » يقول الثانى « ياعين » ويقول الثالث : « الله » .. وبالثلاثه تكمل الأغنية .. وكانوا حديث العمال هناك مثل العين بياض وسواد ونور أحدهم لا يستغنى عن الآخر .. ويذكرون وطنهم الصغير .. مسقط رأسهم دائما وهم يشقون الطريق للنيل فى أقسى قلب .. قلب الجبل ويرددون الأغانى ويتقاسمونها كما يتقاسمون الخبز والشاى .

وكان حلمهم واحدا .. هم الثلاثة ... أن يعيشوا ويقفوا على القمة حتى يروا تدفق الماء فى الأنفاق .. وعاشوا . وعشنا .. ولم يبق على مولد النيل الجديد إلا أربع وعشرون ساعة .. وسكنت خلية النحل .. ووقفت آلاف الأيدى عن العمل مؤقتا حتى يتحول النيل ..

وكان هؤلاء الثلاثة بانتظار ضيف بعثوا إليه ليأتى ومعه شىء ما من

بلدهم ، فركب قطار الصعيد مع الآلاف المؤلفة .. وهو يحمل صندوقا فيه شيء عزيز .. أتى به من هناك من مسقط رأسهم .

وقضو ليلتهم يسمرون ويضحكون كأطفال فى ليلة عيد ، ويتقاسمون الخبز والشاى والغناء والذكريات .. والصندوق تحت أعينهم كأنه الولد البكر لكل رجل منهم .

ولما حانت اللحظة العظيمة ليتدفق النيل الجديد ، كان الناس هنـاك يكبرون على الجبل كأنهم على عرفات .. من السفح إلى القمة .. ووقف الشبان الثلاثه ومعهم الصندوق .. كان صغيرا يحمله رجل واحد .. و لم يكن أحد يلحظهم .. لأن حماسة كل فرد قد استغرقت مشاعره كلها ..

وعندما كان الماء يجتاز الأنفاق على بعد كبير منهم (وعلى موسيقى الهدير شاعت هتافات حماسية) .. وعندما وصل الماء الجديد إلى البقعة التى يقف فيها الشبان الثلاثة انفتح الصندوق .. وأخرجت يد أحدهم هدية نفيسة قدموها للنيل .. هل هى أسمى من العمل وأثمن من العرق ؟ لكنها لفتت نظر الناس على كل حال فصفقوا لها ...

رفعها بين ذراعيه أطولهم قامة .. ووقف يهتف بها ويرقص لمدة دقائق ويستدير مرة للناس ومرة للنهر .. ثم .. ثم ألقى بها إلى الماء ..

كانت فى ثياب زاهية من الورق الملون .. عروسة للنيل فى حجم مولود .. صنعوها من شيء أغلى من الذهب .. مما هانت من أجله الروح .. من تربة أرضنا الطيبة .

واحتواها الماء كأب عظيم يحتضن فلذة كبده .. فاختلطت بالغريـن وذابت ثم طفت ثيابها الزاهية على صفحة النهر وسبحت إلى الشمال تمر على

الهرم .. ورقص الشبان الثلاثة ورقص الناس معهم عندما سرى همس يكشف الحقيقة . فلم تكن عروس النيل إلا من تراب بقعة هانت من أجلها أرواحنا .. بلد الشبان الثلاثة .. الذى خاض معركة السد .. لكى نبنى السد .. بورسعيد .

* * *

هل تعود ...؟

... ووصفت القلوب بأنها أعضاء تؤدى وظيفتها بشيء من الفوضى كما تؤديها بقية الحواس . فكما نسمع أصواتا نود أن تلتقطها آذاننا ونرى مناظر نود ألا تراها أعيننا ، فإننا نحب أناسا نود ألا نحبهم .

* * *

كان ذلك فى أيام شبابى الباكر ..

أيام كنت أحب فيحس بى من أحبه ، من النظرة الأولى . وأؤمل فلا يروعنى أن تتخلف آمالى لأننى أنفق من عمر لا يزال فى أول عقده الثالث .

وكانت المشكلات تبدو لى فى صورة غير مصمتة ، أقرب شيء إلى أن تكون غابة ذات مسالك ، أو صحراء ذات مسارب ، أو ليل شتاء تونسه النجوم .

وكانت المشكلات تبدو لى فى صورة من عمرى رأيت أمي تترنح من شدة الصدمة ، وبدت هيئتها وهى فى ثياب الحزانى تنظر إلى أطفالها بعينين مفكرتين أهدابهما مبلولة ، بدت كأنها لسان متلعثم يدعونى إلى عمل شيء .. لا نعرفه على التحديد ، ولكنه حيوى لازم على الرغم من أنه مجهول ، وكان مكان أبى الخالى موجودا ، فى شقة بالأجرة ، فى مسكن يتطلب نفقات لا تتوقف ولو توقف أصحابه عن الطلبات . وجعلنى ذلك أتصور كلما دخلت البيت أنه بيت بلا سقف ، وأن شبابيكه بلا شيش ولا زجاج ، وأن الهواء الهادىء الذى يسقط فوق رءوسنا فيه سيتحول بعد قليل إلى عاصفة .

ووصل إلينا خالى ذات مساء من الريف ليسأل عنا . ووصلت بعده من

المحطة عربة نقل تحمل سمنا ودقيقا ، وأثارت خبطته على الباب أشجانا كثيرة لأننا ذكرنا بها خبطة أبي .

ثم تكلما عما فى شأن المعاش الذى ستصرفه الحكومة . و لم يلبث حديثهما أن تحول إلى شأن أعظم خطرا وأبعد أثرا فى حياتنا ، وذلك هو شأنى أنا .

أحسست حين وقعت على نظرات أمي وخالى أننى وقعت على نظرات بين شقى رحى أو أسطوانتى عصارة . وكانت نظرة أمي إلى صلاحيتى ممزوجة بالشك والرثاء ، أما نظرة خالى فقد كانت شكا خالصا أو لعله مشوب بشيء من الاحتقار الطبيعي الذى يضمره المكافح للمتقاعد القادر على أن يكافح ، ولذلك قررت فى هذه اللحظة أن أثبت صلاحيتى لأى عمل .

وكان خالى مقاولا متوسط الحال ، فضمنى إليه لأعمل معه بالأجر .. ولأتعلم . ولم تحزن أمي حزن الأمهات التقليدى إذا انقطع أولادهن عن المدارس لأننى كنت طالبا لا أشجع على التعليم .

وكان بدء الحياة قاسيا بالنسبة إلى ، لأنه كان قلبا لنظام معيشتى كلها . فإن أعمال خالى لم تكن فى المدينة بل فى الريف حيث الأرض الواسعة التى لا يتعثر فيها البصر إلا إذا اعترضته شجرة . وتدور أعماله حول شق الترع أو المصارف أو تطهيرها لكننى ألفت الحياة شيئا فشيئا .. وكان مصدر الألفة والترفيه عنى أننى شعرت بامتيازى بين من أعيش معهم ، وذلك يدعو إلى الرضا النسبى ، وكان عملنا فى هذا الموسم فى إحدى مديريات الوجه البحرى .. فى منطقة من الأرض يبدو عليها الكلال والتعب ، وتذكرك رقعتها التى يلون الملح لموقفها فى عدة مواضع ، بوجه امرأة ريفية عارية ، سيئة التغذية .. مصابة بمرض « البلاجرا » . وقد بذل الفلاحون فيها مجهودا فرديا لم يغن عنهم شيئا حتى تقرر إنشاء شبكة من المصارف فى هذه الرقعة ورسا

عطاؤها على خالى .

وكنت كبير المشرفين على العملية لحساب المقاول . وكانت حدود عملنا تنتهى عند قرية صغيرة يملك أرضها فرد واحد . وكانت هذه القرية هي الحد الفاصل بين الجدب والخصب . وكنا نرسل إليها من يشترى لنا حاجاتنا من البيض والزبد أو العسل والشاى والسكر ، ونوصيه أن يحمل إلينا منها ماء نظيفا .

وقامت على خدمتى الخاصة فى الخيمة التى أستريح فيها امرأة عجفاء فى حدود الخمسين ، اخترتها من بين العاملات حين اطمأننت إلى وجهها الطيب . وكانت يداها المعروقتان قادرتين على أن تقدم كل شيء نظيفا فى حدود الإمكان . وكانت من القرية التى تتعلق بها أبصارنا وقلوبنا لأنها حدود انتهاء العمل ، فإذا بلغناها استراح كل متعب ورجع كل غريب ..

وتخلفت المرأة عن الحضور ذات صباح فالتمست لها عذرا . ثم تخلفت فى الصباح التالى فأحسست بشيء من التذمر ، وتمنيت أن أجد بين العاملات وجها طيبا مثل وجهها ، لكننى فوجئت بعد قليل بفتاة فى مقتبل العمر تقف عند باب الخيمة وتقول والحياء يثقل كل شيء فيها :

ـــ إن أمى مريضة .. وقد أرسلتنى لأرى ما إذا كنت محتاجا إلى شيء .

وجلست عند الباب تنتظر ، وكنت مشغولا مع أحد الرجال فى حسابات اليوم السابق ، فلما ألقيت إليها باهتمامى ، أعجبنى أنها صورة من البيئة التى تعيش فيها .

كانت مثل هذه الأرض المحتاجة إلى إصلاح ، الخصيبة فى مواضع ، الجديبة فى مواضع . غير أن طابع الطيبة والبساطة كانا يغلبان عليها كما غلبا على أمها . وسردت لها موجز حاجاتى وتركتها ، وانصرفت ، لأننى كنت مطالبا

بالمرور على مساحة من الأرض طولها خمسة كيلو مترات . وخطر لى وأنا فى الطريق شىء تافه وبطريقة غير عادية وهو أننى لم أكن متعجبا من تفاهة هذا الخاطر .

ورجعت وقت الظهر فوجدت كل شىء على الصورة التى طلبتها وسألتنى سؤالا أخيرا :

— هل تريد شيئا ؟

فنظرت إليها صامتا ، ودعوت لأمها بالشفاء .

وفى ضحى اليوم التالى توقعت أن تعود »أن تعود لأم ، لكن الفتاة هى التى رجعت بنفسها . وكانت علامات القلق بادية على وجهها الصغير ، المستدير الأبيض إلى حد جعلنى أشفق عليها . ولم أنس أن أسألها عن شيئين معا ، فعرفت أن اسمها « زينب » وأن أمها لا تأمل أن تعود بسرعة لأنها مريضة بالسخونة .. تغيب عنها وتعود إليها فى أوقات منتظمة .

وانصرف الرجال ، وبقيت وحدى وهى على مقربة منى تقضى بعض الشئون فى جو مارس المشرق ؛ الدافىء . وكنت إذا أردت أن أرى فعل الربيع فى المنطقة لا أنظر نحو الشمال ؛ لأن الأرض هنالك جرباء فيها بياض الملح وسواد التربة ، اللهم إلا بعض أشجار تفرقت على الطرق المتعرجة فى غير نظام . أما نحو الجنوب حيث تقع القرية وحيث ستنتهى عملية الحفر ، فقد كنت أرى بشاشة الريف وفعل الربيع فى ربوعه خصوصا على السور النباتى العالى القائم حول إحدى حدائق الفاكهة .

وأحسست أنها تشعر بنظراتى ، وأن هذا الموقف لم يكن فى حسابها من قبل . ثم جعلت أسألها عن أشياء شتى بأسئلة يجمع بين وحداتها مناسبات تافهة كان المقصود منها وصل حبل الكلام . ولم أكن أقصد إلى شىء أبعد من

تعمق النفسية الطيبة كما يحلو لك أن تحاور طفل أحد أصدقائك حين يدخل عليك حجرة الاستقبال فتبدد معه الوقت حتى يجيء أبوه .

عرفت منها اسم أغنى رجل فى القرية ، وأصناف الفاكهة التى تزرع فى حديقته البادية لأعيننا . وذكرت لها بهذه المناسبة أننى شممت رائحة التمر حنة من شجيرات عند أقدام السور . وعرفت منها بعد ذلك أشياء أخرى ..

ثم نسيت بعد يومين أو ثلاثة ، أن أحدا قبلها كان يقوم على شئونى وخلقت فى جو عيشى المؤقت نوعا من الأنس يشبه الأنس اللطيف الهادىء الذى يخلفه هرير القطة فى فراش الغلام . ولست أدرى لماذا أذكرها كلما رأيت قطة بيضاء ، لعل ذلك راجع إلى هدوئها ، وتمسحها البرىء الذى لا يخاف العواقب .. تمسح الآمنين الذين يظنون الخير بكل الناس ويبوحون بسرعة بكل شىء ، حتى للمسافر معهم فى القطار إذ أنسوا به وارتاحوا إليه .

كان يخيل إلى لدقة جسمها ونماء عودى أننى قادر على أن أحملها تحت إبطى أو فوق ذراعى . وتخيلتها تبتسم وتناغى وتتمسح فى صدرى بنعومة القطة وبراءة القطة .

وصار ميلى إليها مشوبا بالخوف عليها ، كأننى أخشى على شىء كان يتحطم .

وبدل أن تحمل إلى أنباء أمها فى اليوم السابع حملت إلى شيئا لم يخطر على بالى .. حملت إلى مع الزبد والبيض والغسيل النظيف قدرا من أزهار التمر حنة . وحين غمرت أنفاسها المكان نظرت إليها متسائلا بعينى ، فقالت ببساطة فى اللحظة التى وقفت فيها أمامى ويدها ممدودة بكوب الشاى :

— ألم تقل إنك تحبها .. إن أحد أقربائى يشتغل فى الجنينة .

فزفرت و لم أعد أملك نفسى :

— نعم .. أحبها .. ولكن .. ظننت أنك تعنين ما أقول .

وتركت يدها ممدودة بالكوب الساخن ، وجعلت أنظر إلى وجهها الذى تورد فى كل ناحية ، حتى رأيت على شفتيها انتفاضة صغيرة فأهويت إليها برفق وقبلتها .. كأنما لأسكن هذه النفضة .

ثم مددت يدى فأخذت الكوب من يدها بعد أن فاض عليها شيء من الشراب الساخن حين سمعت لغط الرجال عن قرب وهم يتحدثون فى طريقهم إلىّ عن فلاح تستر بالليل وأخذ فأسه وهرب .

وسافرت آخر النهار لمقابلة خالد فى البندر ، وقضيت ليلتى فى فندق متوسط الدرجة رحلت منه فى الصباح إلى مكان العمل . وخيل إلى وأنا فى طريقى إلى الخيمة أن أسأل عنها أول من يلقانى لأعلم هل جاءت اليوم أيضا .. لكن الظروف لم تحوجنى إلى السؤال ، فقد رأيت شبحا يغدو ويروح على مقربة من المكان .. عرفت فيه شبح الأم . وكانت منهوكة ضعيفة الخطا كأنها خارجة من معركة . قلت لها ببساطة وإشفاق :

— ولماذا لم تستريحى وقتا آخر .. فأنت فى حاجة إلى الراحة .

فلم تزد على أن قالت :

— معلهش . أصلك وحشتنى .

وتوقف الحديث عند هذا الحد ، كما توقف حضور الفتاة . ولم أعد أشم رائحة التمر حنة إلا إذا مررت بجوار السور . وأخذ العمل يقترب من القرية قليلا قليلا ، وهذا يؤذن باقتراب النهاية ، وتزايد غناء الفلاحين يوما بعد يوم ؛ لأن قرب العودة هيج وجدانهم ، وأخذوا يرددون الغناء جماعات وأفرادا . وغطى على غنائهم صوت شاب أكثر قربا منى ، كان يتغنى بمحبوبته البيضاء ويرفع أمر هواه فيها إلى (قاضى الغرام) حتى تأودت على أنغامة

القدود المتعبة .. لفتيات يحملن التربة من القاع ليلقين بها على الطريق . ورفرفت على المكان روائح أيقظت قلوبنا جميعا ، تشبه روائح الأيام القليلة القريبة من العبد .

وهممت أن أقول للأم شيئا : أن أسألها عن زينب ولماذا لا تجيء .. لكننى شككت ثم عدت فاستكبرت أو استحييت . ثم تذكرت قصة البحار الذى أحب فى الميناء حيث رست السفينة لبعض شأنها ، ثم .. ثم ترك قلبه وأقلع .

وضحكت من نفسى ، ووصفت القلوب بأنها أعضاء تؤدى وظيفتها بقية الحواس . فكما نسمع أصواتا نود ألا تلتقطها آذاننا ، ونرى مناظر نود ألا تلتقطها أعيننا ، فإننا كذلك نحب أناسا نود ألا نحبهم .

وفى اليوك التالى قلت للأم :

ـــ إن شهر أبريل هذا العام أشد حرارة من شهر مايو فى العام الماضى ، فلا تتعرضى للشمس حتى لا تعاودك الملاريا .

فلم تفلح الحيلة ، وأحسست فى باطنى بشىء يسخر منى ، لأننى لم أكن مخلصا فى النصيحة ، بل كنت أريد أن أرى الفتاة . وأجابتنى الأم ببساطة عارية :

ـــ أتظن أننى سأموت قبل أن يفرغ أجلى .

ثم ضحكت ضحكه شاحبة ، وابتسمت أنا من حالينا ، وأنا أنظر نحو الشمال وأملأ البصر بما عملته أيدى الفلاحين فى الأرض المريضة الجرباء .

وحانت الليالى الأخيرة لإقامتى هناك ، وفى خيمتى القريبة من الحديقة كنت أشم رائحة الترحنة كلما نشط نسيم الليل . وحملنى دفء الموسم على البيات هناك معظم الليالى . وكنت كلما شممت العبير تلفت فى الظلام أو تحت نور القمر ظانا أنها فى طريقها إلىّ وأنها لم تعد تتحمل . لكن أحلامى لم

تتحقق .. فأدركت أن الحياء هو الزمام الذى تضبط به الطبيعة رغباتنا حتى لاتطغى ، وأنه البذرة الأولى فى حقول الفضائل .

ثم قلت لنفسى ونحن نجمع حاجاتنا ونحزم أمتعتنا فى الصباح : لماذا نحن قادرون على أن نصنع لأنفسنا ما تكره فى حين أننا عاجزون عن أن نصنع لها ما تحب .. وحتى الكره نفسه إذا أمسى ضرورة للقلب كدواء الكافور فإننا نعجز عن صنعه لأنفسنا .

ووقف قطار الركاب وقفة طويلة فى المحطة القريبة من منطقة العمل .. المحطة الصغيرة المحرومة من الرصيف الضالة بين الحقول المريضة ..

وتزاحم الفلاحون يركبون بأمتعة متميزة معظمها فؤوس وجوالات ، وكنت قد ركبت من محطة سابقة حيث أنهيت هناك بعض شئونى . وانتقلت الأصوات الصاخبة إلى الداخل بعد أن صعد أصحابها ، ولم يبق إلا أناس متفرقون كانوا فى توديع مسافرين عائدين .

ووقفت فى النافذة ألقى نظرة على الأرض البعيدة ، فرأيت آثار الحفر بادية قبل خط الأفق ، وتذكرت أنى تركت شيئين اثنين حيث كنا نعمل : عند الأم ملابس لى نسيت أن تحضرها ، وعند الفتاة علاقات لى ، نسيتها .. أو أغضبتها . وسألت نفسى ، وبصرى يتواثب على الأرض المختلفة الألوان : هل نعود ؟ .. فحضرتنى صورة البحار الذى ترك قلبه فى الميناء .. وأقلع ..

لكننى بصرت بها فجأة تحت نافذتى ، وكانت تجرى نحو القطار كما تجرى القطة البيضاء . وأخذت منها الورقة الملفوفة قبل أن تفصل بينى وبينها السرعة .

لقد تذكرت كل منهما ما ظننت أنها نسيته . فقد كانت اللفافة مطوية على الملابس ، وأزهار التمر حنة .

اخضرت الأشجار

لم تكن الشمس قد أشرقت على الريف فى ذلك اليوم . كان الوقت مبكرا والشهر « أبريل » ونداوة النسيم تعبر من خلال النوافذ المقفلة عطرا بكرا صنعته يد الله .

ولم يكن فى الحجرة الكبيرة أحد سواه . والباب مقفل عليه من الخارج وميعاد الفطور لم يحن بعد . لكنه كان فى حاجة قصوى إلى أن يتحرك ، فقد أحس أن هذا الفراش الذى لزمه شهرا هنا ومنذ خمسة أشهر فى المدينة ، أحس أنه منجد بالشوك — وأن هذه الحجرة ذات الطراز الريفى العريق ضيقة جدا .. مع أنها ذات جدران مرتفعة ومساحة لاتقل عن ثلاثين مترا .

وجلس فى فراشه وحمل ذقنه على كفيه ثم أخذ يفكر .. إنه كان حزينا قبل أن يأتى إلى الريف كان يائسا من دنياه .. يرقب صباح كل يوم من نافذته وهو جالس على كرسيه ذى العجلات ، فلا يرى ابتسامة البشر على وجه أحد ، ويخيل إليه أن الناس الذين يتسابقون أمام عينيه إلى أماكن الرزق لايفهمون من حقيقة الدنيا شيئا . أما المساء فقد كان ينزل على المدينة فى نظره كما ينزل الكابوس .. بليل لانور فيه ولا نوم ولا حلم سعيد . لكنه فى هذا الصباح يحس أن شيئا فى داخله يبتسم ، وإن كانت ابتسامته تخلو من ذكريات مرة .

وها هى ذى الخادمة الكبيرة التى تقوم على شئونه لم تعد حتى الساعة من عند بنتها التى وضعت غلاما ، كان أعز بشرى تلقتها طول عمرها ، إنها لم تنجب إلا بنات وهى لذلك تبدو أنها مشغولة ، وأنها تحمل طفل بنتها فى اللفائف ،

وتتفرس ملامحه ثم تكبره عشرين مرة على الأقل.. بعين خيالها المشتاق لترى على شفته شاربا رقيقا عظيم الشهامة وتقبله .. وتضحك .. كانت هذه هى أفكاره وهو جالس فى الفراش . ورفع ذقنه من على كفيه وقلب بصره فى المكان . وأخذ يعد النوافذ والكراسي بطريقة لاتعنى شيئا . ثم تذكر وحدته وأخذ يفحص تفاصيلها فنظر إلى السرير المطوى فى الركن البعيد من الحجرة وتذكر الأيام التى كان فيها منصوبا منذ عهد غير بعيد منذ سنوات خمس .. كانت زوجته ترقد هناك ويأتيه حديثها من بعيد .. ثم .. ماتت ، ودفنت فى القاهرة وكان هو يحترف تجارة الأقمشة فاستطاع أيام الحرب الماضية أن يقتنى أشياء كثيرة وكانت هذه المزرعة الصغيرة من الأشياء التى اقتناها ..

ثم سكتت أفكاره .. قطعها عليه وقع خطوات على السلم ظنها خطوات خادمته الكبيرة .. إنها زوجة أحد الفلاحين كانت تطارد دجاجة فرت من حظيرتها وأخطأت طريقها إلى السلم . وأخذ ينصت إلى المعركة حتـى اختفت آخر معالمها . ثم عاد يقلب بصره فى الحجرة الواسعة ويحصى الأشياء بطريقة لاتعنى شيئا . حتى وقع بصره ثانيا على السرير المطوى فتذكر زوجته وأولاده ..

تذكر ابنه الأكبر الذى يشغل الآن وظيفة فى إحدى المراكب التجارية ، قطع الدنيا طوال سنوات دراسته بأن يكون بديله فى التجارة لكنه قال : « إننى يا أبى أفعل ما أصلح له ، ولا أفعل ما تحبه أنت ، ولا ما يحبه الناس » .

وابنه الأوسط الذى يشتغل مهندسا بحريا فى إحدى المراكب التجارية يقطع الدنيا طولا وعرضا ، ويحمل إليه كلما عاد هدية طريفة أو حادثه عجيبة وقعت له أو لأحد الناس .

ثم ابنه الأصغر الطالب بكلية الشرطة .. البعيد القريب والذى لن يكون

إلى جواره حتى بعد أن يتم دراسته ، لأنه سيكون فى خدمة الأمن فى إقليم ما من أرض بلده ..

وعادت خطوات أخرى وضجة تسمع على السلم . والشمس لم تشرق بعد . ونداوة النسيم تملأ أرجاء المكان عطرا بكرا كأنما رشته « بخاخة » . ثم تبين له أن دجاجة أخرى تجرى على السلم وأن أحدا يطاردها ..

ونقلته أصوات المعركة الناشبة بين المرأة والدجاج إلى جو من الأمانى والأحلام فحسد كل شىء يمشى على رجلين حتى ولو كان دجاجة .. مصيرها هكذا .. تحبس فى حظيرة حتى تدركها السكين .. نعم .. لأنه مشلول منذ ستة أشهر ، إحدى ساقيه لاتقوى على حمله ، وهو بطبيعة إحساسه مثقل باليأس . يحس بالخلاء والوحشة منذ وقع له هذا الحادث .. ولم يصدق لحظة واحدة ما أكدته الوقائع وأقوال الأطباء من أن المرضى بمثل مرضه يبرأون . وكان يضيق بالطبيب حين يقول له « ساعد نفسك » حتى صرخ فى وجهه ذات ليلة قائلا له : « إذن فما مهمة أطواق النجاة » .

ونظر إلى الكرسى ذى العجلات الواقف إلى جوار الفراش نظرة صديق لصديق .. أحس فى هذه اللحظة أنه أنفع شىء فى الدنيا ، فهل يستطيع أحد أبنائه الآن أن يحمله إلى هذا الركن القصى فى حجرة النوم .

ورأى أول شعاع من أشعة شمس اليوم يدخل من خلال النوافذ والخادمة الكبيرة لم تعد بعد . وكان محتاجا إليها . ومن الغريب أنه لم يشعر بحنق ولا غضب بل حنا عليها . كان يتصورها جالسة فى القاعة الصغيرة على الفراش الأرضى بجوار بنتها وهى تقبل ابنها الرضيع فهل خطر على بال هذه الخادمة أن طفلا كبيرا جدا ينتظرها على بعد ثلاثة كيلو مترات ؟ ولم يتألم ولم يشعر بحنق ، بل نظر إلى الكرسى ذى العجلات وتقلقل فى مكانه معتمدا على كوعه

مدليا رجله السليمة محاولا أن ينزل إلى الكرسي ، وما كاد يفعل حتى فوجيء بإحدى عجلاته تنزل إلى الأرض .

فتحامل فى هدوء راجعا إلى الفراش . وجلس ، وأخذ ينظر إلى أسفل إلى حيث يربض الكرسي . وحمد الله على أنه لم يستقر عليه بكل ثقله إذن لأصابه مكروه .

لكنه عاد من جديد يستمع إلى يقظة الدنيا حوله .. كانت هناك أصوات تغنى وسط الحقول يحمل الصباح صداها طريا عذبا كأنما غسله الندى . وناس يصيحون .. ينادى بعضهم على بعض كي يسرعوا إلى العمل . وطيور تغنى وحيوانات تتناغم .

وسحرته الأصوات .. وأحس بقلق يسرى فى أعضائه يشبه إلى حد ما قلق الساقين حيث يعزف الموسيقى ، فدلى رجليه من الفراش ، ووضعهما على الأرض بشجاعة لم تسبق له من قبل على الرغم من إغراء الطبيب . وحانت منه التفاتة إلى الكرسي الذى سقطت إحدى عجلاته فرأى نفسه أقوى منه .. وأحست إحدى قدمه بالأرض و لم تحس بها القدم الأخرى لكنه تحامل على الاثنتين معا ودار مع الفراش ، وفرض بينه وبين نفسه أنه جريح ووحيد حتمت عليه الظروف أن يزحف حتى يصل إلى أقرب إنسان .

ووجد نفسه جنب النافذة فظل واقفا وعالجها حتى انفتحت ، وفجأة بدت له الحقول والمزارع والأفق فى بهاء لم تقهره عيناه .. وتبسم واستنشق هواء كأنه لم يذقه من قبل مثلما يشرب الظمآن . ونسى نفسه فى وقفته لأنه أخذ يتأمل كل شيء أمامه .. كانت هناك شجرة من اللبخ تقوم على الطريق العام كأنه يعرفها وهو صغير ، وكم صاد العصافير من بين فروعها ، والسمك من الترعة القريبة منها ، وكان يشعر أن رابطة ما تربط بينهما . ومنذ خمس

سنين جاء الربيع واخضرت كل الأشجار على الطرق وفى الحدائق وحول الدور وفى المزارع . لكن هذه الشجرة لم تخضر كلها . كان نصفها أخضر ونصفها يابسا . وجاء أحد الفلاحين فى ذلك الحين ووقف أمامه وحياه ثم وضع فأسه على الأرض واتكأ بيده على يد الفأس وسأله :

لماذا لاتقطع هذه الشجرة ؟ فأجابه صاحب الأرض : ولماذا تقطعها ؟ دعها .. فإننى أحبها .. فابتسم الفلاح وحمل الفأس ومشى ودعا للشجرة أن تعود إليها الخضرة .

وها هو ذا اليوم ينظر نحوها .. كل الأشجار قد اخضرت .. وقوة الإنبات فى الأرض ملأت القرية بالحياة وشجرة المشمش نعم .. وكأن حركة بعث إلهية لمست كل حى ..

وتذكر فى وقفته ناسا كثيرين .. ابنه الكبير الذى تلقى منه رسالة تعبر عن شوقه وتعد بأنه سيكون عنده قريبا ..

وابنه الأوسط .. وابتسم ومصمص بشفتيه .. إنه أحب أولاده إليه .. آه لو كان يراه .. ورأى عصفورا ينقر عصفورا فأحس كأنه يقبل ابنه البعيد . إنه الآن فى البحر . وربما كان على أرض أحد الموانى يفتش عن شىء طريف يحمله هدية لأبيه .

وعادت عيناه تفتشان عن شجرة اللبخ .. يا إلهى .. أليست هى هى القائمة عند هذا المرتفع . إن الساقية والترعة ومفترق الطرق وشجرة اللبخ أشياء ومعالم لا يمكن أن ينساها . لكن .. لماذا هى خضراء كلها .. كيف عادت إليها الحياة بأكملها ؟ وفرك عينيه وعاد يحملق.إنه ليس مخدوعا .. إنها حقيقة.وشعر بسرور كأنما عاد إليه صديق كان مفقودا فى معركة — ورأى الفلاح الذى أنذر يوما بقطع هذه الشجرة يعبر على الطريق من بعيد بلا فأس

وهو يترنم بأغنية . وسأل نفسه : هل من الممكن أن يكون لى نفس المصير الطيب الذى لقيته هذه الشجرة ؟

فأتته الإجابة متمثلة فى صوت الطبيب الذى طالما همس له :

« ممكن .. لكن يجب عليك أن تساعد نفسك »

وما لبث سمعه أن امتلأ بصوت يهتف بتحية الصباح ، وكان صوت الخادمة الكبيرة لم يشعر بها حين دخلت عليه لأنه كان غارقا فى تأملاته ، وطلب منها كرسيا وجلس إلى النافذة و لم يدر لم كان يحس أنه ولد من جديد مع الطفل .. ابن بنتها ، ومع الطبيعة .. ومع الخضرة البهيجة التى غطت شجرة اللبخ بعد غيبة طويلة .

كانت هذه اللحظة مولد أمل كبير فى قلبه ، فتناول فطورا شهيا وقرأ الصحف ونادى على الفلاحين فناقشهم فى كثير من مشاكلهم وكأنه لم يغب عن أرضه يوما واحدا .

لم يطلب من أحد أن يصلح له عجلة الكرسى . كان مصمما على أن يسير وواثقا أنه سينجح .

وفى الصباح الثانى تكرر الموقف ، وفى الصباح الثالث حدث نفس الشيء ، وفى الصباح الرابع بينما كان واقفا فى الشباك ينقل بصره من الشجرة إلى الطريق ، لاح له شبح شاب يعبر الساحة أمام البيت . بخفة وعجلة وهو يحمل لفة صغيرة . وفحصه بقلق .. إنه يشبه ابنه البحار .. لعله هو .. إن له نفس القامة والمشية . ها هو ذا يقترب وتأوه فى شوق . لوأنه ابنى .. وتأوه مرة أخرى وكاد يسقط على الأرض لكنه تماسك.إنه على وشك أن يطير بجناحين .. إنه الآن عند باب الشقة وقد قطع طول الحجرة إلى الباب دون أن يشعر .. مشى على رجليه ..

وتساقطت من عينيه الدموع وهو يحتضن ابنه الذى عاد مع الربيع ، وظل طول شهر كامل هناك فى الريف ، يمنح السعادة لسكان المكان الذى منحه الحياة من جديد ، ويرقب شجرة اللبخ من النافذة مع كل صبح ببشاشة من يحدث صديقاً .

الباحث عن المتاعب

كنا نذاكر فى حجرة واحدة ، أنا ، وأخى . وكنت أتمنى لو كان بيتنا واسعا ليفرق الله بينى وبينه ولو فى ساعات العمل . فقد كان فتى أكبر منى بثلاثة أعوام وأغزر منى حيوية وأقوى صحة .

وكنا نحن الاثنين على وشك أن نتم مرحلة التعليم الثانوى . وعلى الرغم من أنه يسبقنى بثلاث سنوات فى الميلاد لم يكن يسبقنى فى الدراسة إلا بسنة واحدة . وقد حاول جاهدا وعمل حتى درجة الموت ألا تعثر رجله فى امتحان ما فيقع فألحق به . وهنا تستوى السلحفاة والأرنب وتكون مصيبة !! أنا أكون معه فى سنة واحدة ؟! وأنا لا أزال (حتة عيل) وهو رجل كامل الرجولة يعمل حسابه من يعرف اسمه ؟!

هكذا كان يقول لى دائما . وكنت أنزوى خائفا منه وأبتهل إلى الله بحرارة أقوى وأتقى وأعمق من حرارة دعائه ، ألا يتعثر فيكبو فألحق به ، وإلاّ استحالت عيشتى معه تماما فى بيت واحد . وإذا كانت حياتى معه تسير هكذا منغصة مبلبلة وهو فى وضع يرضاه منى ، فكيف إذن تكون لو وقفنا يوما ما على سلّم واحد ؟!

على أننى ـــ وإن كنت أحبه ـــ فإننى كنت أراه مثل الإله الذى لا يرضى ، أو الصنم الذى لا يشبع من القرابين . بمجرد أن تقفل علينا حجرة المذاكرة كانت تستحيل إلى حجرة تعذيب . فإذا ما فتحت كتابى لأبدأ العمل ابتدرنى بلكزة من كوعه قائلا فى صوت هامس :

— يا سلام ! .. مستعجل أوى .. يعنى ح تبقى أفلاطون أو أرشميدس أو شكسبير . خليك ذوق والنبى وحس على دمك لما نتكلم شوية !!

— حاضر !

أقولها بانكسار شديد .. وأنا لابد كما يلبد الأرنب . وكنت ميالا إلى الصفرة واسع العينين (أكرت) الشعر . فحتى يرى تضاؤلى وتسليمى وإنصاتى الذى يظهر جليا أنه مطبوع بطابع القهر ، كان يقول :

— اعمل أرنب يا لئيم !! .. ولِمَ بأه تشتكى لماما أو بابا ؟ .. المهم .. اسمع .

وتظهر مزاياه الحية ، وحركته اللولبية وروحه الخفيفة المتطايرة السريعة الانتشار كأنها النوشادر . وحالا .. تشغلنى خفة ظلله عن ثقل معاملته فأشرع فى الإنصات لما يقول .

* * *

كان غلاما محبا للمتاعب .. أقرب الطرق عنده هو الكثير الأوحال شتاء ، الساطع الشمس صيفا ، الخالى من الفوانيس ليلا . عدوّ نفسه ، لا يحب الراحة . وكنا — مثلا — نرى قبة مسجد السيدة من نافذة منزلنا : يقول عندما تقع عليها عيناه :

— لو أستطيع أن أجلس فوق هذه القبة مدلّيا ساقى إلى تحت دون أن أتزحلق ؟!

ومرة ونحن نلعب ، خطف عكاز شحاذ ضرير كان يتحسس به الطريق وهو يتكفف الناس ، وطّوح بالعكاز على خرابة مقفلة الباب وحرم على أولاد الحارة أن يقودوا خطا الرجل . ثم لكمه بين كتفيه وجرى . فإذا الأعمى يجرى وراءه فى الأزقة وأنساه حبه للانتقام تضنعه العمى للتسول ، فضحك

أهل الحى من هذه الحادثة و لم يعودوا يرون الشحاذ بعد هذا اليوم .

مهمل خفيف الظل . مجازف لا يخاف . يحب بدينه ومستقبله وتقاليد أهله . ويختار فى الحب أوعر المسالك وأكثرها أو حالا ومتاعب شأنه فى اختيار كل طريق .

— اسمع يا حسنى . أقسم بالله العظيم .. إذا ما عدلت عن كثرة الشكوى لوالديك لأحرقن جميع كتبك وأتلفن عليك سنتك وأجعلها سوداء . فاهم ؟

— حاضر !

وينسى ويستأنف الحديث بوجه طلق فى شأن جديد كأنه إنسان آخر :

— أتريد أن تعرف آخر أخبار البنت زنوبة بنت بياع السجاير الذى يقع دكانه على شريط الترام ؟ إن العلاقة بيننا تطورت كثيرا .

فأقول بمداراة :

— والله يا أخى أنا لا أعرفها .

— لئيم !! ومن الغريب أن لؤمك هذا يدخل على أمك وأبيك . ألا تعرفها حقا ؟ .. ذات العيون الخضراء ! البنت القصيرة ذات الصدر العجيب !

فأقول مغلوبا :

— آه تذكرتها .. ما بالها ؟!

— أنت مستعجل ؟ اطمئن سأشرح لك كل ما تحتاج إليه من دروس .. فقط أنصت إلىّ خمس دقائق . دخلت وراءها حوش بيتهم الواسع وقبلتها فى الظلام :

ثم يحكى ويحكى وأنا أكاد أختنق من الغيظ .

ورجوته ذات ليلة أن يعفو عنى :

— اسمع يا أخى . أنت صحيح أكبر منى وأقوى وأعقل وأذكى بكثير ،

ولكن .. أليس حراما أن يضيع بعضنا أوقات بعض ونحن على أبواب الامتحان ؟

واستطردت أتملقه :

ـــ أنت معتمد على ذكائك . أما أنا فإنسان غيرك . أنا أطرق فى حديد شبه بارد . فإذا فترت عن العمل ضاع مجهودى .

ثم برقت عيناى بالدموع . لقد جربت قبل ذلك أن أجلس بعيدا عنه فى أى مكان ، فأذاقنى عذابا روحيا شديدا طوال الطريق ونحن ذاهبان وعائدان من المدرسة . كبعض أنواع الحب ، أو (الكيوف) لا قربه يكفى ولا بعده يشفى ، شر على كل حال .

وكأنما أثرت فيه آلامى فى هذه الليلة . وفى اليوم التالى رأيته ونحن عائدان من المدرسة مشتبكا فى عراك مع أحد أقارب البنت زنوبة . فتى أقوى منه وأضخم وأطول . ولم أكن سائرا مع أخى جنبا إلى جنب . كان قد سبق بقليل فلما أدركته وجدته مشتبكا فى عراك . كتبه مبعثرة ولكمة تحت إحدى عينيه وغريمه مضرج فى دمائه من لكمة سددها أخى إلى أنفه . وكانت المصارعة اليابانية آخر ما تعلمه هذا الأسبوع ، ولذلك استطاع أن يسقط هذا الفحل على الأرض .

وتدخل أولاد الحلال وفصلوا بين الفريقين فى الوقت الذى حمدت فيه الله على أننى وصلت بعد إعلان الهدنة .

وانزوينا معا فى مكان بعيد عن البيت واتفقنا على أن أسارع أنا عند دخولى فأعلن الكذبة بالنيابة عنه فى الوقت الذى يكون هو فيه متأخرا فى صعود السلم ، وعلى مسامع (ماما) ألقيت بطريقة آسفة :

ـــ حادثة سخيفة يا ماما حدثت ونحن فى الطريق .. أثناء مرورنا فى شارع

درب الجماميز الضيق البائخ ، كانت سيارة شحن محملة بحزم مضغوطة من قصاصات الورق ، وأثناء انحرافها مع أحد المنعطفات اختلّ توازن إحدى الحزم ..

وسكت . وضممت شفتى فى حزم كما وصف لى الكذاب الكبير ..
وخبطت أمى على صدرها صارخة :

— أين أخوك ؟

— لا تجزعى . لم يحدث شىء .

فصرخت :

— أين هو أولا ؟ قل لى .

— إنه يصعد السلم على مهل .

— هل أصيب ؟

— لا . ليس من بالة الورق بل من مؤخر صندوق العربة . وهنا رأيناه ماثلا على العتبة بشكل درامى صابر صامت . وبمظهر الرجل الذى وقعت عليه كارثة من السماء لا يد له فيها فاحتملها بجلد كما يفعل المؤمنون !!

وعندما اطمأنت الأم إلى أن الله قد لطف فى قضائه أخذت تسب أناسا مجهولين وتلعن حظه المهبب وطريقه الملىء بالعثرات . دائما .

* * *

ولم يمض أسبوع على هذا الحادث حتى رأيته يميل علىّ فى حجرة المذاكرة ويقول بعينيه كلاما . كانت عيناه عسليتين جذابتين غزيرتى الأهداب تتعارك فى مائهما الجاذبية مع اللوم والإغراء . وابتسم صامتا . فقلت لأعجل بإنهاء الموقف :

— بسرعة من فضلك . لم يبق على امتحانى إلاّ أسبوعان وعلى امتحانك

إلا شهر واحد . أنت فى الثقافة هذا العام . لا تنس .

ـــ لن أضيع وقتك . هل علمت بحكاية البنت ؟

ـــ زنوبة مرة أخرى ؟!

فأجاب باستخفاف ، وهو يهز كتفيه :

ـــ لا . زنوبة !! . زنوبة إيه ؟! سيبك . المصريات لا يعرفن الحب !

فخفق قلبى .. وهتفت دون أن أشعر :

ـــ يا نهار أسود !

ـــ هس . هس . لا تفضحنا .. ألا تسمع وقع خطوات أمك فى الممر ؟ اعقل . هل سنختلف من جديد ؟ أنت عارف !!

ولوح بالانتقام فبلعت ريقى وسألته بهوادة :

ـــ قل أنت .

فأخرج من مخبأ صنعه فى جلد أحد الكتب على هيئة جيب ، أخرج صورة شمسية لفتاة ومعها خطاب مكتوب بلغة لم أستطع فهم عبارة منها .

ثم أخذ يسرد علىّ ملخص القضية . إنه تعرف على فتاة بطريق المراسلة . إيطالية ، اسمها « ماريانا جيوفانى » بمدينة جنوى . وبواسطة أحد أبناء الطليان من معارف أصدقائه المقيمين فى شبرا يكتب ويترجم .

ثم أخرج من مخبأ فى درجه كتيبا صغيرا يعلمه اللغة الإيطالية ، لكى يكتب بنفسه لهذه الفتاة التى أحبها بالتراسل .

قلت فى نفسى : تلك مصيبة لا يقدر على تدبيرها إلا الله . الله وحده !

وفى الأيام التالية . كان يقول لى الكلمة بالعربى ثم بالإنجليزى ثم بالفرنساوى ثم بالإيطالى . وأكتم أنفاسى وأكتم دموعى . ويسهر فى تكبير صورة الحسناء بالفحم وكتابة الرسائل الحارة ليترجمها له صديقه فى اللقاء

التالى . ويمنى نفسه بركوب الباخرة ليلقاها أو الطائرة ليصل إلى جنوى .

وأعلنت النتائج . ونجحت أنا . لكننى لم أفرح . كنت بانتظار النتيجة الأخرى . فهى التى ستحدد موقفى ولون أيامى ولياليى فى العام القادم . مصيبة إذا رسب . نكون معا فى الثقافة ؟ الموت ولا هذا .

لكن الذى حدث أنه رسب .. فى الدورين معا .. وأصبحنا تلميذين فى سنة دراسية واحدة .

* * *

وسارت الحياة أثناء الشهور الأولى من العام الجديد بطريقة لا ترضى أحدا . كثر الخلاف والمشاكسة . وكنت أستحى أن أشكو لأمى أو أبى . فلما ضاق ذرعى شكوت ، فإذا بكلمة تأنيب لم تكن متوقعة تخرج من فم الأم معناها أننى ابتدأت فى دلال المغرورين . أهذا لأن الحظ خان أخى ؟! ..

وحرمت الشكوى على نفسى منذ هذه الليلة . وسهر أخى ليكتب بالعربى ليترجم بالإيطالى . وتجددت علاقاته مع البنت زنوبة ـــ كما كان يدعوها ـــ ونمت ، العلاقات حتى دخلت إلى بيتها .

بطريقة نسائية جرّت أمها رجله إلى البيت ومشت الأمور فى غموض شامل طول العام حتى أعلنت نتيجة (الثقافة) مرة أخرى فإذا بكارثة أكبر من العام الماضى تقع . أنجح أنا .. ويتخلف أخى الكبير ..

* * *

أنت تحس أنه لابد أن يقع شىء ما .

لقد فكرت فيما فكر فيه أخى حسنى ، لكن دوافع الإقناع وقوة العزيمة عندى كانا أقل بكثير منهما عند أخى . فكرت فى أن أفرّ من البيت وأتركه له . لكن (حسنى) بعد إعلان النتيجة لم يظهر له أثر . وزعم أبى ـــ ووافقته أمى

أول الأمر — أن اختفاءه . هزة نفسية لنا يقوم بها الخبيث الخائب ليغطى آثار الخيبة ، لكن الأيام مرت أسبوعا وراء أسبوع وشهرا بعد شهر . و لم يعد .

كنت أنظر إلى أوراقه ورسائل حبه و كتبه وصورة الفحم للفتاة الإيطالية بعين دامعة طوال الشهور . حتى هممت أن أسأل عمن يكتب للفتاة خطابا فى بلادها ويقول لها : لقد ضيعت شابا . لكننى تذكرت أنه كان ضائعا من كل ناحية .

ثم بلغنا أن أم البنت زنوبة هى التى مولت أخى حتى يهيىء لنفسه عملا ثم يعود فيتزوج . ثم جاءنا خطاب من السويس بخطه يخبرنا أنه بخير ، وأنه فى رغد من العيش ، ويرجونا ألاّ نحزن فهو يهيىء لنفسه مستقبلا .

وفى ذات مساء وبعد عامين ، وجدنا من يقف على بابنا فى ملابس بيضاء مطرزة على هيئة زىّ رجال البحرية . واكتشفنا أن الواقف هو أخى ، وأنه التحق بإحدى شركات البواخر .

كان يبدو تحت كبريائه أنه غير سعيد ، ولكن كل شىء بالنسبة لمستقبله كان قد تحدد . وعجيب أن حرارة العاطفة لم تكن عندى شديدة التأجج ، كأن البعد يدوس جمرات الحب بحذائه الكبير . أو كأن العلاقات من الأشجار التى لا تستغنى عن السقى . وأقام عندنا أياما ورحل .

وسألته ونحن نودعه وكنت إذ ذاك طالبا فى الجامعة .

— هلا تزال تذكر زنوبة وماريانا ؟!

فضحك وقال :

— ألم يتغير معظم ما كان بينى وبينكم ؟ كل شىء يتغير بفعل الزمن ، على أننى كنت يوما ما فى (جنوى) و لم أفكر فى الأمر . وداعا !

و لم نعد نراه إلاّ بالقدر الذى يسمح به رسوّ البواخر . نعم .. وتزوجت

البنت زنوبة من شاب غير أخي ، ومزقت أختى الصغيرة صورة ماريانا المرسومة بالفحم . وأحب حسنى على طول تعرجات الشواطىء .

ولما قامت الحرب ، واضطربت الملاحة فى البحر الأبيض اعتبرت السفينة التى أقلع عليها (حسنى) من السفن المفقودة !

ناس يعيشون على الأرض ، وناس يمرون عليها مجرد مرور ، كأنهم ظلال أو خيال .

رحلة العودة

عند نزول المساء كانت الأحوال تتحسن بالنسبة لركاب السفينة . فهدأ الجو وخفت حدة الموجة . وشيئا فشيئا صار كل ما حول الركاب أعذب مما كانوا يتوقعون .

وكما يفعل الناس أيام الحروب فى (ليلة هدنة) إذ يسارعون إلى نهب المسرات قبل عودة الهموم ـــ كذلك فعل ركاب السفينة . فتجمعوا حلقات حلقات فى المماشى والردهات المستطيلة على السطح ، وفى البار الأعلى ، والصالونات ، ليغنوا ويضحكوا ويمرحوا قبل أن يثور البحر مرة أخرى .

أما هذه السيدة فلم تكن قد امتزجت بعد بالجو الذى حولها . كان فى رأسها بقية صداع من دوار البحر الذى أصابها ظهر اليوم بعد قيام السفينة من أحد موانى إيطاليا . لكنها بعد الغروب بقليل أحست أنها فى طريقها إلى التحسن .

وكانت فى هذه اللحظة معتمدة بذراعيها على الحاجز الحديدى تتأمل تلاشى النور المنبعث من المصابيح ، تتأمل تلاشيه على بعد قريب فوق الماء . والجزء المظلم والجزء المضىء من ذلك الكائن الجبار .. من البحر . وعند الأفق يركد الظلام .. ولا شىء إلا الظلام .

وعند منحنى الممشى سمعت خلفها وقع أقدام ثقيلة . عرفت صاحبها من أول وهلة . لكنها لم تحاول تغيير وقفتها وإن أحست أن عينيه تعبثان بها من الخلف . فصدرت منها حركة غير إرادية فتململت على الأرض إحدى

قدميها .

واتكأ هو على حاجز السفينة ، على مسافة تبعد عنها بثلاثة أمتار . وعلى الرغم من أنها كانت كافية للبعد ، فإنها حاولت أن تنظر إلى الاتجاه الآخر .

وعند الأفق كان يركد الظلام . وكانت تحملق فيه كأنها ترى نقطة من النور . وعند هذه النقطة رأت زوجها وهو يودعها ، باكى العينين تبدو عليه الهزيمة كأنه خسر إحدى المعارك وليس فى موقف وداع فقط . وتكوين جسمه وتركيب ملامحه لم تكن من المظاهر التى تجعل الدموع تثير الشفقة ، فقد كان ضئيل الجسم كبير الرأس بارز الجبهة صغير العينين ، منكوش الشعر حائرا مرتبكا ، تماما كمن خسر معركة . أما هى فكانت على سمرة وجهها متناسقة الملامح قادرة على تحمل موقف الوداع ..

وأخذ الرجل الضخم الجسم المتكىء على الحاجز يرسل نحو البحر صفيرا خافتا من بين شفتيه كأنه يغنى للموج ، ولم يكن من المستطاع أن يصل إلى سمعها لولا أن الهواء يهب من ناحيته . وفى اللحن نغمة كأنها نجوى أخرجتها من أفكارها مرة أخرى لتذكره هو .. هو هذا الذى لم يلق عليها تحية المساء والذى يعاملها بتحفظ كأنه يحترم وحدتها . ذكرته حين مد إليها يده وقت الظهر بقطعة من الليمون وقرص أبيض زعم أنه ضد دوار البحر . ولما نظرت فى عينيه وجدتهما عينين تمسكان الناس . كأنهما نوافذ سحرية . وهو فوق الثلاثين ، يبدو عليه أنه مجرب . ووجهه المائل إلى الشحوب يحمل طابع الملذات .

ثم انقطع لحنه فلم يصل إلى أذنيها . وعلى الرغم من رغبتها فى الحركة فقد ظلت مشدودة إلى مكانها . والظلام راكد على الأفق وعيناها تحملقان فى نقطة كأن فيها مصباحا رأت عنده آخر أسبوع قضته مع زوجها الذى يدرس الرسم

فى إيطاليا .

لقد ظن أن إقامتها معه ستعاونه على أشياء كثيرة ، لكن الحسبة كانت خطأ . ورأيا أن دخول الشتاء عليهما سيجعل الضائقة أشد . فقررت الزوجة أن تعود . وابتسما وعيونهما مليئة بالدموع . . حين تبينا أن فى الدنيا أشياء لا يستطيع الحب أن يقهرها ولو أنه القوة التى تقهر كل إنسان .

ثم أخذت تسترجع صور الأشخاص الذين رأتهم هناك . فذكرت « جوليانو » زميل زوجها وصديقه . المستطيل الوجه الأسود العينين ، وشعره الذى يشبه سواد الفأر ، وغناءه الشديد الوله الكثير العذوبة الممطوط النغمات — حين كانوا يخرجون إلى بعض الضواحى لقضاء عطلة الأسبوع . وذكرت (فتوح) ، (سعد) وغيرهم من المصريين وفى ليلة من الليالى ... آه ..

لكن أفكارها توقفت لأن وقع خطا ثقيلة سكن خلفها ، وإذا بالرجل نفسه يلقى عليها تحية المساء ويميل فيتكىء على الحاجز على مقربة منها . ولم تر السيدة بدا من أن ترد ، ولم تكد أفكارها تنصرف عنه حتى بادرها بالسؤال قائلا :

— لعلك الآن أحسن صحة .

فأجابت باختصار :

— أشكرك .

ورأت تقاطيع وجهه لأنه فى اتجاه النور ، ورأت عينيه الساحرتين وسمعته يقول بنبرة خالية من التكلف لكنها مليئة بقوة لم تدرك سرها .

— هل كنت تدرسين الفلسفة فى الخارج يا آنسة ؟

فلم يسعها إلا أن تحملق فيه ثم تبتسم ، وتسأل :

ـــ الفلسفة ؟! .. ولماذا ترمينى بهذه التهمة ؟!

ـــ تهمة ؟! .. إنك تتكلمين جادة .. فى حين أن سؤالى أيضا يحمل طابع الجد ..

كان يريد أن يفتح باب الكلام وقد فتحه الآن على مصراعيه . إنه هو الذى أمسك بذراعها وهى تصعد السلم عصر اليوم وكانت الباخرة تتأرجح حتى تعذر على السيدة أن تواصل الصعود . وقد حملقت فى عينيه برهة عند السطح وشكرته وانصرفت وها هو ذا يعود .. للمرة الثالثة . وقد رماها بتهمة الفلسفة . ثم قال لها :

ـــ نعم إنك .. تتكلمين جادة فى حين أن سؤالى يحمل طابع الجد . لقد كنت مستغرقة فى التفكير إلى درجة تحملنى على هذا الظن .

فسارعت قائلة :

ـــ هل تريد أن تعرف ماذا كنت أفكر فيه ؟

فرد باهتمام :

ـــ نعم .

ـــ وبدون مراوغة ولا كذب ؟

فرد باهتمام أكثر :

ـــ نعم . نعم ..

فأجابت وعلى وجهها شىء من السخرية سترها الليل :

ـــ كنت ... أفكر .. فى غيرة زوجى على أن زوجى رجل غيور جدا يا سيدى .. لو أنه معنا الآن لـ ..

وكانت تتوقع أن تهزه المفاجأة ، لكنها سمعته يضحك فى طمأنينة . وأجابها وهو يضغط إحدى كفيه بالأخرى على الحاجز الحديدى :

ـــ أوه .. كل هذا فى نفس واحد . لم تكونى تدرسين الفلسفة .. وأنت

متزوجة .. وزوجك غيور ؟! يعنى أن ظنى لم يصدق فى شىء واحد ؟

ثم سكت لحظة ليستطرد :

— أنت راكبة من إيطاليا لأننى لم أرك قبل ذلك .. آه .. زوجك رجل غيور ؟ .. لو كنت مكانه ما استطعت أن أكون إلا غيورا .

ثم استدرك كأنه نسى شيئا :

— سيكون بانتظارك على الميناء طبعا .

— طبعا .

— وهل كنت وحدك فى إيطاليا يا سيدتى ؟

— لا . أخى موظف فى السلك السياسى وقد دعانى أنا وزوجى لقضاء شهرين عنده لكن أعمالا هامة حتمت رجوعه قبلى .

— لكن لماذا أنت خائفة من الناس . أهذه أول مرة تجربين فيها السفر ؟

فتأوهت وهى تقول :

— ربما .

فقال بتفاؤل شديد :

— ألا تشعرين بأن الجو بدأ يبرد . لماذا لاندخل إلى المقصف فنتناول شيئا ؟

وأشار بيده إلى الباب فسارت نحوه فى صمت .. وتبعها .

وخفت حدة تفاؤله حين طلبت فنجالا من القهوة ، فى الوقت الذى طلب فيه كأسا من النبيذ ، ثم أخذ يحدثها عن الغيرة من جديد ، لأنه رآها أنسب الأشياء لإثارة مشاعرها :

— هل يسر المرأة أن يكون زوجها غيورا ؟ .. أريد أن أسألك أنت .. هل يسرك أن يكون زوجك غيوارا ؟

فردت ببساطة كأنها قضية لا تحتاج إلى مناقشة :

التالى إلى الإسكندرية وكان البحر متوسط الحال لا هو ثائر ولا هو هادىء . ولم يكن السطح شديد الزحام لأن الجو كان مائلا إلى البرودة . وأخذ الشاب يفتش عن السيدة حتى رآها فى أحد الصالونات ولم يكن غريمه إلى جوارها . فأقبل فى لهفة وألقى تحية المساء ثم جلس ولم يلبث أن عرض عليها أن يتمشيا قليلا ، فلما اعترضت بأن الليلة باردة رد بأنها آخر ليلة .

وفى الركن السابق الذكر تحت المصباح الذى يضفى على الموقع لونا سحريا . جلسا يتجاذبان أطراف الحديث مرة أخرى . وكان الشاب فى موقف القائد الذى رمى بكل قواه فى المعركة لأنه حريص على إحراز النصر فتحدث عن أثر الأشخاص الذين يلقاهم المرء فى حياته على سبيل المصادفة .. فى سفر .. فى بلد بعيد أو أى شىء آخر . ثم يفترقون بعد ذلك لا يلتقون وقد يحمل كل منهما للثانى ذكرى لا تزول ثم سألها :

— ألم يحدث هذا لك ولو مرة واحدة ؟

فأومأت برأسها وعينيها :

— نعم .

وكأنها تقول له : إننا فى هذا الموقف أنا وأنت.فقال لها :

— ألم تلاحظى شيئا ؟ .. ألم تلاحظى أن أحدنا لم يحاول أن يسأل الآخر حتى عن اسمه ؟

فقالت وهى تهز ساقها :

— هل ترى ذلك مهما ؟ .. إنه لم يحل بيننا وبين أن نتحدث فى أشياء أكثر إجمالا .

وأراد أن يقول لها إننى عرفت اسمك من الثانى ، لكنها بدت متهالكة فى كرسيها كأنها متعبة تريد من يحملها إلى الفراش . وعيناها مسبلتان

كأن النوم أثقلهما . و لم ترفع إليه بصرها إلا حين سمعته يتأوه ، فسألته فى همس من يهتم بأمره :

— هل تحس تعبا ؟

— جدا !

فاستطردت تغريه :

— من البحر ؟

فأجاب فى صوت متلعثم :

— لا . لأن ماءه مالح . الماء العذب وحده هو الذى يصيبنى بالدوار .

فجمعت شالها حول كتفيها وهى توحوح ، وقامت لتنصرف لكنها كانت تقول له بكل حركاتها : لا تتركنى . فسألها :

— من الممكن أن نلتقى مرة أخرى ..

ثم تشجع وألقى بآخر فوج من قواته :

— إننى وحدى فى كابين بالدرجة الأولى . فلم لاتشربين معى فنجالا من الشاى ؟

فوقفت تنظر إلى الأرض وضمت شفتيها تفكر . ثم نظرت فى الساعة التى كانت العاشرة مساء . ثم همست وهى ترخى معصمها :

— ربما .. لكن بعد ساعتين على الأقل ..

— سيكون الباب مفتوحا فأديرى الأكرة فقط .. طاب مساؤك .

لكنه لم يسمع جوابا .

وحين دقت الساعة الواحدة بعد نصف الليل ، كان الشاب يتململ جالسا أو مضطجعا فى الفراش . و لم يكن فى الكابين نور إلا من (أباجور) صغير ، وفى اللحظة التى عاد فيها إلى رقاده ودس وجهه فى الوسادة يحلم وهو

مستيقظ كان هناك شبح يتسلل فى الطرقة محاذرا أن يراه أحد . وعد من أول السطر أربعة أبواب كما هو متفق عليه ووقف أمام الخامس فتأكد من رقم الكابين ، ولو أن نور الطرقة كان غير كاف ، وأدار أكرة الباب فانفتح فدخل وأقفله وراءه فى الحال ، وتحرك الشاب فى لهفة وقام منتصبا فى وسط الغرفة و لم تأخذه دهشة كبيرة لأنه كان يعرف الوجه الذى دخل .. عليه .. كان وجه الرجل الآخر وجه العجوز .. وجه الغريم وجه الخصم .

وبعد زوال لحظات الدهشة ، انفجر الرجلان يضحكان . وخرج الضيف العزيز غير متسلل ولا مستخف . وبات الثلاثة يضحكون طول الليل .. كل فى فراشه .

وفى الصباح رأت كلا منهما مرة واحدة . وكتمت ضحكها وهو يفر من وجهها . وعند رسو السفينة فى الإسكندرية حملق الرجلان فرأوا ناسا كثيرين بانتظار السيدة . أما الخطاب الذى كتب إلى الزوج فى إيطاليا يطمئنه بسلامة الوصول فقد كان فيه :

« هل تعرف القصة التى قصها علينا صديقك جوليانو فى الميناء يا عزيزى قبل سفرى . قصة السيدة التى سافرت وحدها وضايقها التافهون لقد طبقتها بحذافيرها .

« وبت أضحك طول الليل وأنا أتصور منظرهما حين يلتقيان وجها لوجه . كان جوليانو يريد أن يقول :

« إن الشرف الحقيقى هو أن تحافظ على الشىء وأنت قادر تمام القدرة على تبديده دون أن يعرف الناس » .

عزيزى : متى تعود ؟!

عرفت سر الليل

ونادتنى باسمى قائلة : « اسمع .. انت صاحى » فلما أجبتها ، أمرتنى بأن أفعل أشياء كانت غريبة .. ثم مالبثت أن أحببتهما .. المرأة والأشياء معا ، ثم أدركتنى ثلاثة أشياء أخرى وأنا فى دارها : الرجولة والشرود والذبول ..

* * *

لم أكن أعرف سر الليل قبل تلك الحوادث . وكنت كأى غلام فى الرابعة عشرة من العمر يعيش فى القرية . يذهب إلى المدرسة ويجرى بقية اليوم ثم ينام بعد العشاء على جنب واحد فلا ينقلب حتى الصباح .

وكنت بين إخوتى أقلهم كلاما وأكثرهم هدوءا وانطواء على نفسى وكان إخوتى كثيرين وأنا بينهم أشبه بالغريب عنهم حتى أنهم كانوا ينسوننى فى بعض المناسبات لقلة الضجيج أو الجلبة أو الإعلان عن النفس إذا تزاحموا على غنيمة أو شيء شهى مما يحمله الآباء للأبناء ، وكانت أمى تفطن إلى ذلك أخيرا فتتنهد وتعلن أسفها ثم ترفع عقيرتها بشتمى قائلة لى :

ــ لماذا لا تتكلم .. لماذا لا تطلب حقك إذا نسيك الناس ؟ .. أما مصيبة !

لكن هذه الطباع وهذه المواقف رشحتنى لتجربة لازلت أذكرها حتى اليوم .

كانت هناك أسرة متصلة بأسرتنا ، وكانت من أدنى طبقات القرية لكنها كانت مستورة الحال . وهذه الأسرة لم تكن كبيرة العدد .. بل كانت من

اثنين فقط : زوج وزوجته لا ينجبان أولادا . وكانت الزوجة لونا من النساء غريب الطراز . دائما نظيفة مغسولة . ليست ذات جمال بارع لكنها قادرة على أن تجذب إليها أنظار كل الرجال . فى الخامسة والثلاثين .. مشهورة بأنها صاحبة الكلمة الأولى على زوجها الطويل الهادىء جدا الذى يشبه نسيم الصيف فى الليونة والوداعة .

وذات يوم وقعت حادثة لم تكن فى حساب هذه الأسرة الصغيرة . علمنا بها حين دخلت علينا زوجته وهى تولول معلنة لأمى أن زوجها قتل غلاما ! كيف ؟ !! وهل هذا معقول ؟ ..

وملخص الحادث أنه كان يعمل (سواقا) فى إحدى المزارع فى موسم جمع القطن . يعنى مهمته كانت هى الإشراف على الأنفار فى الخطوط . يمشى وراهم ويحثهم على العمل ، ويكافىء ويعاقب كأنه وكيل المالك .

وفى شهر أغسطس والحر شديد وضوء الشمس متوقد على الحقول كأنه أنفاس حريق ، استبد الغضب بزوج هذه المرأة حيال غلام تأخر عن قافلة العمل مرة بعد مرة ، فأمسك الرجل بحصاة كبيرة من أرض الحقل ورمى بها الغلام ، فأصابته خلف أذنه فخر مغشيا عليه ثم .. اكتشفوا أنه ميت .

وظلت الحادثة موضع اهتمام القرية طول أشهر الصيف والخريف ، وظل الرجل وزوجته فى انتظار حكم القضاء وكان المحتم أن يحكم عليه بالإدانة . واعتبرت القضية قتلا خطأ وحكم عليه بستة أشهر .

وفى الليلة الأولى التى سينامها الزوج فى السجن والتى ستنامها الزوجة فى الدار وحدها ــ فى هذه الليلة سهرت الزوجة عندنا حتى وقت متأخر من الليل وهى تحكى وتبكى ، وكنت قابعا أمامها مثل الأرنب أراقب جريان الدمع على خديها واحتقان وجهها بالحمرة إذا مامسحته بطرف طرحتها .

حتى آن لها أن تخرج من عندنا ذاهبة إلى دارهم .

وفى هذه اللحظة وقع ما لم يكن فى حساب أحد . إذ وقفت الزوجة تتلفت كأنها تذكرت فى هذه الوهلة فقط أنها ستنام فى الدار وحدها .

ولما التقت عيناها بعينى أمى .. هتفت فى بساطة قائلة :

ـــ ليس فى أولادى من هو أنسب لينام معك من هذا الغلام فخذيه .

ثم أردفت أمى فى لهجة أمر لاتدبر فيها .

ـــ قم !

وخرجت أتبعها فى الليل . ولم يكن فى السماء قمر . والجوذو برودة محتملة ، وداخلنى شعور مبهم حاولت أن أتفهمه فى هذا العمر .. كنت خائفا فرحا ونفسى مليئة بالفضول . حتى كأننى لست ذاهبا إلى تلك الدار التى أعرفها بل إلى قصر سحرى مجهول سأفتح حجراته حجرة بعد حجرة .

وعثرت وأنا سائر فأمسكت بيدى ، ثم قالت لى بصوت ترك بكاؤها فى نبراته أثرا :

ـــ على مهلك .. لكن قل لى : انت متضايق من نومك فى دار غير داركم ؟ .

فأكدت لها أن « لا » .

وقطقط الوز عند دخولنا معا ونبح جرو صغير وسارع للقائها .

ودخلنا معا إلى حجرة ريفية كانت قد أدفأتها قبل غروب الشمس ..

وشممت رائحة الفرن والوقود والخوف والوحدة فى هذه الحجرة .

وعندما أقفلت علينا الباب وفرشت على الأرض حشية قديمة ووضعت عليها مخدة تتسع لاثنين وكانت تتنهد وهى تقوم بهذه الحركات وتهمهم بكلمات لم أتبينها .

لا أستطيع أن أفهم لماذا كنت مسحورا . لا أستطيع !

وقالت لى بلطف : « نم أنت جنب الحائط » . فرقدت فى امتثال وجعلت أحملق إلى خشب السقف الذى اسود من الوقود ، ثم نظرت بطرف عينى إليها وهى تدير مفتاح المصباح المعلق على الحائط ليقل نوره ثم رأيتها تخلع الملابس السوداء التى لم أرها طول عمرى إلا فيها . وتبينت بعينى غلام أن تحت هذه المسوح أشياء أجمل خصوصا عندما لبست ثوبا قديما لتنام فيه . كان قصيرا مقطوع الأكمام فرأيت ساقيها وذراعيها كانت أشياء فى بياض الشمع .

ثم رقدت إلى جوارى وطرحت علينا غطاء مشتركا .. ثم .. ما لبثنا أن رحنا فى النوم .

ومضت الليالى ...

وشعرت بعد مدة من الزمن أن مرقدى الطبيعى ليس هنا فى دارنا بين إخوتى لكن مرقدى الطبيعى هناك عندها . على الحشية بينها وبين الحائط . وأمسيت أراقب بلذة غامضة فيها تطلع يحرق القلب البقع الجميلة التى تبدو من ثوبها الذى تنام فيه .

وذات ليلة استيقظت من النوم فإذا بى أرانى بين إخوتى والديوك تصيح معلنة قدوم الصباح والنور يتسلل من شقوق الباب فأحسست بحزن غامض . وجعلت أتذكر لماذا أنا هنا ، ولماذا أنا لست هناك ؟ حتى تذكرت أننى نمت بعد المغرب مباشرة ليلة أمس فلم يكن مستطاعا أن أذهب معها .

وفى ضحى اليوم التالى جاءت عندنا لتغسل لنا قمحا فابتدرتنى قائلة أمام أمى بمزاح جميل :

— « كده ياخاين .. تسيبنى أنام وحدى طول الليل امبارح » ..

وضحكت هى وضحكت أمى . وكان هذا معناه أننى أحسست بلذة

لا توصف عندما ذهبت إليها فى مساء اليوم ودخلت مرقدى كأننى أعود إلى وطنى .. لم أكن أدرى لماذا ؟ ..

وفى الهزيع الأخير من الليل استيقظت أنا على شيء يضغطنى ففتحت عينى برفق فرأيتنى فى أحضانها . كانت تقبل فمى وتمسح على جسمى بقعة بقعة حتى أننى كنت أنكمش بطريقة غير إرادية .

ولما تكررت محاولتها ذهب عنى الضيق وبقى حب الاستطلاع .

فقد كنا نتكلم ونحن غلمان عن أشياء خرافية إذا ما جمعتنا حلقة السمر فى ليالى القمر .. وظللت أنتظر بلهفة ما عسى أن يتطور إليه الأمر حتى وجدتنى أحظى بدفء أكثر وأكثر ، وحتى وجدتنى مع مرور الليالى أستيقظ من النوم مخنوقا على لهثاتها ثم أشاهدها بعد أن تبتعد إلى طرف الحشية وهى تمسح عرقها بطرف ثوبها فألوذ أنا بالحائط القريب منى .

وكانت هذه الأزمات تتكرر فى فترات متباعدة . لكنه مع مرور الليالى أمسيت أترقب حدوثها . وكانت تعلم أحيانا أننى مستيقظ وتتجاهل ذلك عند حدوث الأزمة وكنت أحاول جهد طاقتى ألا يبدر منى ما يدل على اليقظة .

لكنه راعنى فى إحدى الليالى أنها نادتنى باسمى قائلة : « اسمع .. أنت صاحى ، فلما أجبتها أمرتنى بأن أفعل أشياء كانت غريبة .. ثم ما لبثت أن أحببتهما .. المرأة والأشياء معا . ثم أدركتنى ثلاثة أشياء أخرى وأنا فى دارها : الرجولة والشرود والذبول .

ثم مضت الشهور الستة وعدت إلى مكانى من دارنا وعاد زوجها إلى مكانه فى داره .

وأعتقد أن أحدا منا لا أنا ولا هو ذاق طعم النوم طوال الليلة الأولى .

غير أن الذى أدهشنى هو أننى اكتشفت أننى أحببت هذه المرأة . كانت

تنظر إلى بطرف فاتر كلما دخلت دارنا وكأنما تثير ذكرياتى . وكنت أكمن على مقربة منها محاولا أن أرى ساقيها أو ذراعيها وكان يحز فى نفسى إلى درجة تبلغ حد البكاء أنها نسيت كل شىء بعد عودة زوجها بجمعة . أما أنا فكنت متذكرا تفاصيل الحجرة والمصباح والفرن والحشية والمخدة والغطاء المشترك . وكل شىء .

وتحول شعورى إلى مجرى جديد . هو أننى ما عدت أطيق أن أرى زوجها . أحسست نحوه بكره لا مزيد عليه . وكم تمنيت أن يعود إلى السجن . ودعوت الله فى خلواتى ببلاهة أن يرمى غلاما آخر بحصاة فيموت ...

لكن بعد شهر من عودته من السجن وقع له حادث لم يكن فى حساب أحد ، فقد كان عائدا فى الليل إلى داره فرماه أحد الناس بحجر كبير — لا بحصاة صغيرة فأصابه فى رأسه فنزف منها الدم . ودخلت زوجته على أمى فى الصباح التالى وهى تكتم دمعها وتقول لها :

— إنهم ينتقمون لابنهم ، يريدون أن يقتلوه بنفس الطريقة .. نفس الطريقة ..

وأخذت تدق صدرها .

أما أمى فقد كانت ساهمة تفكر وتحمد الله بالنيابة عنها على نجاته وتبذل لها كثيرا من النصائح .

أما أنا فقد نمت طول هذه الليلة وأنا خائف .. أحلم أن خفيرا يدق باب دارنا بكعب البندقية وينادى أبى ليأخذنى معه إلى دوار العمدة .

فقد كنت أنا الذى تربصت لزوجها بالليل وقذفته بالحجر فى رأسه .

ولا زلت كلما رأيت هذا الرجل بعد أن تقدم العمر أحس بوخز الضمير كلما مد إلى يده ليصافحنى بحب .

عـودة الـغريب

لم يكن هناك مفر من أن أعود إليه . وكانت أمي تقول لى عنه دائما : إنه قاس قسوة الأقدار يعيش عبدا لهواه فى بيت صغير فى العاصمة لا يحبه أحد ، ولا يحب أحدا .

هذا ما كانت تحدثنى به عن أبى ، بعد أن انفصلت عنه لأسباب غامضة ، وبعد أن أنجبت منه بنتا وولدا . البنت قد تزوجت ، والولد ـــ وهو أنا ـــ يبلغ الآن ستة عشر عاما ويعيش مع أمه فى بيت أخواله على نفقة أبيه .. لذلك لم أكن أذكر أبى إلا قليلا ، وكنت أتصوره القوة التى يتطلع إليها صغار الطفولة متمثلة فى الأب ـــ كنت أتصورها فى جدى لأمى ، لذلك لم أشعر بفجوة نفسية ولا ذل ولا حرمان ، فأبى على قيد الحياة تصل إلىّ خيراته بانتظام ، وجدى يحبنى فلا أكاد أنفصل عن أحضانه فى الليل ، ولا عن كفه فى النهار . وكان ذلك أيام كنت صغيرا .

وظللت كذلك حتى كبرت ثم رأيت الحطام الذى كان يفيض بالحنان يرحل فجأة وبلا مقدمات ... مات جدى ، وطلب أبى عودتى إليه لأن بقائى فى بيت أخوالى لم يعد يروقه ، وهو حر الآن وقبل الآن فى الطريقة التى يختارها لتربية ابنه .

لكن فى الوقت الذى طلب فيه عودتى إليه لم يكن مناسبا لأمى ، فلم تكن دموعها قد جفت على أبيها فأحسست كأنها جلدت على جرح . وباتت طول ليلها تتأوه وتطلب لنفسها الموت ممن خلق الموت والحياة .

ولكن ذلك لم يغير من الموقف شيئا فلم يكن هناك مفر من أن أعود إليه . ليكن قاسيا ، أو ليكن أى شيء ، فإن إقامتى عنده إقامة فى الوطن الطبيعى كما يقيم البدوى فى الصحراء والزنجى فى الغابة . وتركت كثيرا من ذكرياتى فى المدينة الصغيرة وسافرت إلى العاصمة ، وغنى عن الكلام أن أقول : إن أمى أحست أن أحدا يستل نور عينيها ..

ولم أكن أعرف بالتفصيل كيف يعيش أبى ، لأن أمى ألقت على حياته ضوءا متذبذبا لا يستقر على منظر فيتعذر علىّ أن أحكم .. ووقفت عربة يجرها حصانان أمام « الفيلا » التى يسكنها أبى فى أطراف الضاحية ، وأسرع البواب العجوز فحمل متاعى وانحنى فقبل كتفى . وفى الوقت الذى كانت العربة تستدير فيه راجعة كانت خادمة نظيفة تجرى لتساعد على حمل أشيائى ، وكان يبدو على كفيها النظيفتين أنها تشتغل طباخة .. وعلى وجهها المسن آثار جمال قديم .

ولم يكن أبى فى البيت ساعة دخلته ، لكن روائحه كانت تملأ أركانه كلها . وذهبت بى الخادمة إلى غرفتى فرأيت أنها مجهزة بكثير من العناية . وذرفت دمعة على فراق أمى وأنا آوى إلى فراشى وحيدا لأول مرة بعد أن حييت أبى فردّ بشرود وابتسام كأننى أسحبه من عالم آخر .

وطبيعى أنه لم ترق لى الحياة فى الفترة الأولى ، لكننى بعد أن تعرفت على كثير من الأنداد فى الضاحية بدأت أنسى كثيرا مما تركته فى المنصورة . وبدأت كتابتى إلى أمى تأخذ طابعا خاليا من الحرارة واللهفة ، وأكاد أقول أننى ألفت شكل أبى كما ألفت طباعه ، وأنه تحول إلى شخص غير الذى رأيته أول ليلة ساعة دخل البيت من أجل أن يرانى قبل أن أنام ، جاء فى الحادية عشرة مساء ، عليه بدلة محبوكة غاية فى الأناقة ، وعصا أبنوسية تلمع إلى جانبه معلقة فى

ذراعه ، وطربوشه الرفيع الحرف محبوك على جبينه بصنعة ، وقميصه الأبيض ذو نظافة تستوقف البصر .. خيل إلى أنه شخص فى منتصف القرن الماضى وأن الزمن نسيه فتخلف فى مكانه .

كان بهى الطلعة لطيف الشيخوخة ، تراه فتعتقد أنه قادر على كل شىء حتى ذلك الذى يفعله الشبان على الرغم من تقدمه فى العمر .

وقبلنى ليلتئذ قبلة واحدة ، وربت على كتفى ثم حملق فى وجهى كأنه يريد أن يتأكد أننى « أنا » وانصرف ببساطة إلى حجرة أخرى ، ولست أجزم هل نام بعدها أو خرج . لكن الخادمة كانت تجرى بخوف لتقضى له حاجاته حتى عثرت مرتين وهى تجىء وتروح . وذرفت دمعة وأنا فى فراشى فقد كان الفرق ضخما بين حنان هذا الرجل الأنيق وحنان جدى المرحوم ، إن وجهه المتكبر يقيم ستارا بينه وبين الناس ، أما جدى فكان ضاحكا أبدا ، مبتسما كالليلة المقمرة تسر وتشجع على المسرة وتذكرنا بالحب .

وأخذت أجول خلال المسكن فلم أجد فيه آثارا لأمى ، لقد افترقا منذ عشر سنوات ، فهل كان هناك تذكارات محتها السنون أم أن يدا ناقمة على اجتماعهما حطمت كل ذكرى .

وكل شىء يؤلف فى حياتنا حتى العاهات ، وقلوبنا ، تطلب العوض عن كل مفقود ، وتستبدل حبا بحب ، لذلك ألفت أبى ، فلم أعد أكرهه ، ولم تكن قسوته كما صورتها أمى ، أو لعلى تخيلت ذلك ، وبذلت لى الطباخة عناية ممزوجة بالحب ، ضمدت فى النفس جراحا لم تكن كبيرة ، وحين كنت أذهب إلى زيارة أمى ثم أعود لم أكن أحس أننى أخلع ضرسا كما خيل إلى ، فأدركت أن الصف الكاسب هو الذى يجتذب الأبناء إليه .

غير أن شيئا واحدا كان يقلقنى .. سألت أمى عنه ذات مساء ورأسى فى

حجرها وأصابعها تعبث بشعرى حتى تلمس جلدةأسى ..

ـــ لماذا افترقت عن أبى يا أماه ؟ ..

فوقفت أناملها على جبينى وأطلت بعينيها من أعلى ثم صمتت كأنها تتذكر ، ثم تحركت أناملها فى شعرى من جديد وأجابت برفق :

ـــ تأكد أنه لم يكن هناك سبب غير شريف . فقط .. أحسسنا فى فترة من الفترات أن أحدنا لم يعد يحب الآخر ..

وألقيت على أبى نفس السؤال فى ليلة من الليالى ، كان كل منا قد قرب من صاحبه نوعا ما ، وأحس الرجل المتكبر الآمر بكل جارحة أن البقاء فى المنزل بعض الأوقات واجب مقدس . وعاد مبكرا فى إحدى الليالى وعلى ملامحه رضا من قضى فى الخارج ساعة سعيدة أنتجت فرحة يريد أن يفيض منها على غيره ، سألته قائلا بعد تردد :

ـــ أبى .. لماذا ؟ .. إن أمى ..

فرمقنى بنظرة لصقتنى فى مكانى ، وعبرت على وجهه بارقة من الذكرى ثم قال وهو يشير بكف فيها بقية سيجارة وبطريقة من يريد أن ينهى حديثا :

ـــ لا شىء .. لا شىء .. اكتشفنا أخيرا أنه من المحال أن نتفاهم ، وليس وراء ذلك شىء آخر .

ولم يلبث مرحه أن غاب وإن غالب فى إخفاء ذلك عنى . ولبس وجهه قناع الكبر ، ثم جمع نفسه وانصرف .

ولاحظت ليلتئذ أنه قضى فى حجرة مكتبه معظم الليل ، كان النور يشع منها إلى مدخل البهو مارا تحت الباب وسمعته يسعل من كثرة التدخين ، وظل بعدها بضعة أيام لا يرجع فى موعد مبكر . وقد فهمت من رشاش حديث الطباخة ومن نظراتها الحذرة أن لأبى أماكن عدة يقضى فيها أوقاتا شهية ، والتمست

له العذر لأنه يجد مالا وفراغا ، وربما فراغا فى قلبه أيضا ..

وفى صيف عام من الأعوام قرر أبى السفر فجأة إلى الخارج ، ودعنى بحرارة لم أحسها طول عمرى . كان أبا حنونا جدا حتى أن دمعة وقفت عند مآقيه مترددة أن تسيل ، ولأمر ما انقطعت رسائله مدة بعثت فى قلبى قلقا . وراودنى خاطر أن أبى لن يعود من أوربا ، فحملنى هذا — دون وعى منى — على أن أتفقد الأشياء ، كما يتفقد التذكار ، فجلست فى حجرة مكتبه أتأمل كل ما فيها ، كان يحب كل شىء رقيق ، فلماذا يبدو قاسيا هكذا ؟ .. إن الذى يهوى اقتناء القطة أرق طبعا من الذى يهوى اقتناء الكلب ، وأبى يحب كل شىء رقيق ، فلماذا يبدو غليظا خشنا ؟ ..

وفى درج مفتوح رأيت كراسة أنيقة . كانت جلدتها توحى بأنها وعاء لأشياء قيمة ، وبما أنه لا مهابة لدار بابها مفتوح ، فقد مددت يدى إلى الكراسة ، وما كدت أقرأ أول سطورها حتى نهضت سريعا وأقفلت على الباب :

٢٠ أكتوبر سنة .....

كانت تتحدث دائما عن الأجسام الغليظة بشكل يثير القلق ، فهل كانت زوجتى هذه تحب فيلا من هذه الأفيال . وقلت لها ذات يوم ... إن الفيل ليس ملك الغابة فضحكت فى تأوه ..

١٥ ديسمبر ...

يبدو أنها من النوع الذى لا يسدل ستارا على ما فى داخله . تحلم بما فى نفسها حتى وهى مستيقظة . وهذا نوع لا يتصف بالعمق ... لا خطر فيه . لا يصلح للجاسوسية ولا تدبير المقالب .. مسكينة بيضاء القلب .

٧ يناير ...

وبعد أن زارنا ابن خالها عادت إلى الحديث عن الأفيال . كنت أنظر إلى هيئته فأتصور أنه لم يصل إلى هذا الحال إلا بواسطة « السقالات » والبنائين . لكن رأسه كان كالعطفة المظلمة المملوءة بالقمامة وصخب الأطفال .

١٠ مارس ...

كل شيء هادىء ، والحركة رتيبة تبعث على النوم ..

أول أبريل ..

دخلت على فى الصباح الباكر وأيقظتنى من النوم . كان عليها قميصها الليلى وعلى وجهها ابتسام يضىء .. قالت : « جمال .. جمال إن ابن خالى حضر لزيارتنا اليوم .. قم » .

قلت معترضا : وهل قابلته بهذا الثوب ؟ .. فوجمت وقالت : لا ضرر .. نحن على الشواطىء نبدو أكثر عريا من هذا .. وقبل أن أجيب بقول أو عمل قالت ضاحكة : كذبة أبريل ..

آخر أبريل ..

وكذب أبريل فى أوله ثم صدق فى آخره .. ها قد جاء يزورنا يحمل الهدايا لمناسبة سعيدة .. وسيقيم فى القاهرة يومين أو ثلاثة .

٢ مايو ..

نام فى غرفة مجاورة لغرفتى ونامت هى فى حجرة فى آخر البهو . المسكن واسع جدا جدا ... ولذلك يشتد هدوؤه فى الليل .

وقمت لقضاء الحاجة ومررت بالغرفة . غرفتها هى . فإذا ببابها موارب ، وعن لى أن أدخل .. وأشعلت المصباح فاستيقظ على نوره شخصان .. هى وابن خالها .. كانا معا فى فراش واحد .. لكن كلا منهما نظر إلى الثانى

وكأنه لم يره . هل تصدق ؟ لقد تصنعا الذهول .

٣ مايو ..

فى اليوم التالى كنت وحيدا فى المسكن .. إنها مأساة .. لا داعى للإطناب فى وصف ما حصل . إن خمود البركان خير من فورانه ، فلأبق ساكنا .. يا إلهى ..

١١ مايو (بعد سبع سنوات)

عثر على جثة رجل متردية فى الأخدود العميق الذى حفرته بلدية الإسكندرية لإصلاح المجارى الرئيسية فى شارع محرم بك . ولما كانت الجثة أمام المنزل رقم ٨ فقد استدعى سكانه ليتعرفوا على شخصية القتيل . و لم يطل العناء فقد ظهر أنه من سكان هذا المنزل . إنه ابن خالها . قرر أهله أن من عادته أن يمشى وهو نائم ، ولأمر ما تركوا المفتاح فى باب الشقة فحدث ما حدث ..

لن يكون هذا الحادث انتحارا ، فليست هذه طريقته ، مائة فى المائة إنها زلة قدم لرجل نائم ، أو رجل مستيقظ على السواء ، هل دخل حجرة بنت عمته بهذه الطريقة ؟ إذا كان ذلك فنحن الثلاثة مساكين . ألا يكفى الأقدار أن تلعب بنا ونحن مستيقظون حتى تلعب بنا ونحن نائمون ؟

هذه القضية محتاجة إلى وقت طويل لأقنع بها نفسى لأن امرأتى لم تتكلم ليلتئذ وكلامه لم يكن قادرا على أن يصل إلى سمعى ..

نحن الثلاثة مساكين .

* * *

وهناك أشياء أخرى لم يعننى أمرها فى مذكرات أبى لكننى حكمت بالبراءة .. هل أنا متحيز ؟ بعض الناس يريق الكأس إن وقفت على حرفها

ذبابة ، وبعضهم يخرجها من الكأس ثم يشرب .. لكننى صممت على أن أصلح ما بينهما بكل ما أستطيع ..

ولما قابلته فى الميناء وذهبنا إلى محطة السكة الحديد لنعود إلى القاهرة رأيته يطلب من عامل الشباك تذكرتين إلى المنصورة ..

وفوجئت لكننى كتمت فرحتى ولم أتكلم .. وفى القطار فتح حقيبة كتبه التى اشتراها أثناء رحلته .. وأخذ منها قصة جعل يقرأ فيها ليقطع الوقت . ومددت أنا يدى فتناولت كتابا آخر عن ظواهر النفس البشرية .

وقرأت وقرأت .. وقبل أن يصل القطار إلى المنصورة كنت أقرأ فصلا عن ظاهرة المشى غير الواعى أثناء النوم . وصفر القطار .. لقد وصلنا إذن .. وامتزجت الفرحة بالأسى فى نفسى .. الفرحة بالمستقبل والأسى على ما فات ، إن أبى وأمى سيلتقيان .

ليت أبى قرأ هذا الكتاب منذ سنوات . إن أكثر الأشقياء تستطيع أن تنقذهم من شقائهم كلمة يثقون بها .. كلمة يسمعونها من إنسان أو يقرأونها فى كتاب .

رقم الإيداع : ١٩٩٠/٥٥٨٢
الترقيم الدولى : ٦ — ٠٦٠٦ — ١١ — ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

الثمن ٤٠٠ قرش

دار مصر للطباعة
[illegible] السحار وشركاه